Published by the Academic Publication Council of Kuwait University. All rights reserved.

Transformations of the Marginal: A Reading in the Poetry of Ibn Ammar Al-Andalusi

Feryal Alali*

Abstract

This study tracks shifts between margin and center in the life of poet Ibn Ammar Al-Andalusi, and their impact on his poetry, in light of the cultural criticism approach. This issue is considered one of the main and basic issues within basic critical issues that he cares for and pays attention to.

The study briefly deals with the problematic term "margin", and the criteria for center and margin in Andalusian culture. It also reviews the most prominent studies that dealt with Ibn Ammar's poetry according to different critical approaches. The applied section presents an analysis of the impact of Ibn Ammar's placement, in the margin or center, on his poetry in a chronological hierarchy explaining all stages of his life and its transformations from his birth (422 AH / 1031 AD) until his murder by Al-Mu'tamid (477 AH/ 1086 AD).

This study concludes that Ibn Ammar's poetry remained dependent throughout his life on his position in margins or in center; he wrote his best poetry when he was in the margins because he needed to extricate himself from a life that was imposed on him, or to save himself from a foolishness he committed.

While being in center, his poetry decreased in quantity and quality; his political and social situation saved him from earning from poetry.

Though the biography of Ibn Ammar exists in some historical sources, it is dependent on the biography of the kings who saved him but he drowned them, a biography that neither a historian nor a critic sympathize with. Some critics' judgments on him were very harsh; his destiny was to live marginally and die marginally. Even in his central position, he never left the margin, nor did the margin leave him; not his life, historical, biography or his poetry.

Keywords: Center and Margin, Cultural Criticism, Andalusian Poetry, Ibn Ammar Al-Andalusi, The Era of Kings of Sects.

* Associate Professor, University of Jordan, Jordan. feryalalali1@gmail.com

Submitted: 18/5/2023, **Revised**: 27/7/2023, **Accepted**: 21/9/2023.

https://doi.org/10.34120/ajh.v42i167.387

To cite this article /الإشارة المرجعية للبحث

العلي، فريال: "تحوّلات الهامشيّ: قراءة في شعر ابن عمّار الأندلسيّ"، **المجلة العربية للعلوم الإنسانية**، جامعة الكويت: العدد 167، 2024، 41–74.

Alali, Feryal: "Transformations of the Marginal: A Reading in the Poetry of Ibn Ammar Al-Andalusi", *Arab Journal for the Humanities*: 167, 2024, 41-74.

تصدر عن مجلس النشر العلمي بجامعة الكويت. جميع الحقوق محفوظة للمجلة.

تحوّلات الهامشيّ- قراءة في شعر ابن عمّار الأندلسيّ

فريال عبد الرحمن العلي*

الملخص

رصدت هذه الدّراسة التّحوّلات بين الهامش والمركز في حياة الشّاعر ابن عمّار الأندلسيّ، وأثرها في شعره، على ضوء منهج النّقد الثّقافيّ؛ الّذي تعدّ قضيّة المركز والهامش من القضايا النّقديّة الأساسيّة الّتي يوليها اهتمامه وعنايته.

وتناولت الدّراسة- بإيجاز- إشكاليّة مصطلح الهامش، ومعايير المركز والهامش في الثّقافة الأندلسيّة، كما استعرضت أبرز الدّراسات الّتي تناولت شعر ابن عمّار على ضوء مناهج نقديّة مختلفة. وفي القسم التّطبيقيّ تحليل لأثر تموضع ابن عمّار في الهامش أو المركز في شعره، في تراتبيّة زمنيّة عرضت لكلّ مراحل حياته وتحوّلاتها منذ ولادته (422هـ/ 1031م) حتّى مقتله (477هـ/ 1084م).

وخلصت هذه الدّراسة إلى أنّ شعر ابن عمّار ظلّ مرهونًا طوال حياته بموقعه من الهامش أو المركز، فكان أغزره وأجوده حين كان في الهامش لحاجته إلى انتشال نفسه من حياة فُرِضَتْ عليه ولم يخترها، أو لإنقاذ نفسه من حماقة ارتكبها، وتراجع شعره كمًّا وجودة حين كان في المركز؛ إذ أغناه وضعه السّياسيّ والاجتماعيّ عن التّكسّب بشعره.

وعلى الرّغم من وجود ترجمة ابن عمّار في متون بعض المصادر التّاريخيّة، إلاّ أنّها كانت مرهونة- من مبتداها إلى منتهاها- بسيرة الملوك والأمراء الّذين أنقذوه وأغرقهم، وهي سيرة لم يتعاطف معها مؤرّخ أو ناقد، بل كانت أحكام بعضهم شديدة القسوة عليه، وكان قدره أن يعيش هامشيًّا ويموت هامشيًّا، وحتّى في مواقعه المركزيّة لم يغادر الهامش، ولم يغادره الهامش لحظة؛ لا في حياته الواقعيّة، ولا في سيرته التّاريخيّة، ولا حتّى في شعره.

الكلمات المفتاحيّة: المركز والهامش، النّقد الثّقافيّ، الشّعر الأندلسيّ، ابن عمّار الأندلسي، عصر ملوك الطّوائف.

* أستاذ مشارك، الجامعة الأردنية، المملكة الأردنية الهاشمية. feryalalali1@gmail.com

الاستلام: 2023/5/18، **التعديل النهائي:** 2023/7/27، **إجازة النشر:** 2023/9/21

https://doi.org/10.34120/ajh.v42i167.387

To cite this article/ الإشارة المرجعية للبحث

العلي، فريال: " تحوّلات الهامشيّ: قراءة في شعر ابن عمّار الأندلسيّ"، **المجلة العربية للعلوم الإنسانية**، جامعة الكويت: العدد 167، 2024، 41-74.

Alali, Feryal: "Transformations of the Marginal: A Reading in the Poetry of Ibn Ammar Al-Andalusi", *Arab Journal for the Humanities*: 167, 2024, 41-74.

مدخل

يعدّ (الهامش) من المصطلحات الفضفاضة في الاصطلاح النّقديّ، ولكنّه يكتسب ثنائيّة جدليّة واضحة نسبيًّا عند ربطه بمصطلح (المركز)؛ إذ يُدخلنا ربط المصطلحين معًا إلى عالم التّنازع والتّدافع والصّراع، إلاّ أنّ التّعاطي معهما يختلف باختلاف المنهج النّقديّ الّذي يخضع له النّص الأدبيّ.[1]

وتمتلك كلمة الهامش في أصل اللغة معنى سلبيًّا؛ إذ تحيل إلى كلّ ما هو خارج المتن أو الأصل؛ وبذلك فهي تحدّد الموقع والدّور المنوط به، كما تحمل معنى الخلط في الكلام وكثرته بلا فائدة[2]؛ ممّا يجعل الكلمة في مرتبة دونيّة في دلالتها. ومن هذين المعنيين في أصل الاستخدام تشكّل معنى الهامش في الدّراسات الثّقافيّة والاجتماعيّة عمومًا، وأصبح يمتلك دلالة مجازيّة تتحدّد ماهيّتها وفق مفهوم المركز، فإذا كان المركز هو السّلطة السّياسيّة فالهامشيّ كلّ ما هو بعيد عن عالم السّياسة، وإذا كان المركز يتمحور حول الثّروة الاقتصاديّة فالفقر هامش، وإذا كان السّيد مركزًا فالمولى والعبد هامشان، ومثله وضع الذّكورة في المركز سيجعل الأنوثة والطّفولة في موقع هامشيّ، والأدب الّذي يدور في فلك السّلطة مركزيّ، وكلّ ما عداه هامشيّ، وهو ما تسبّب بعدم امتلاك الهامش لدلالة اصطلاحيّة واضحة ومحدّدة يلتزم بها النّاقد عند النّظر في النّصّ الأدبيّ، وتحليل مواقعه المركزيّة وتشكّلاته الهامشيّة، إلاّ من خلال النّظر في الأنساق والسّياقات الثّقافيّة الّتي تحكم النّصّ الأدبيّ وتتحكّم فيه، مع الأخذ بعين الاعتبار أنّ الأدب الهامشيّ[3] يختلف في مدلوله عن الأديب الهامشيّ وعلاقته بالمركز.

ولمّا كانت هذه الدّراسة النّقديّة تُعنى بشاعر أندلسيّ هو ابن عمّار، فإنّ مفهومَيْ المركز والهامش يتحدّدان على ضوء تشكّلهما في الثّقافة الأندلسيّة الّتي كانت حاضنة للأدب الأندلسيّ، وهي ثقافة بُنيت مركزيّتها على ما بنيت عليه مركزيّة الثّقافة العربيّة في المشرق، فالسّلطة السّياسيّة هي أصل المركز ، وهي الّتي تحدّد ما هو مركزيّ أو هامشيّ، فالإسلام الّذي دان به كلّ حكّام الأندلس- من الفتح إلى السّقوط- مركز، واللغة العربيّة الّتي تبنّتها السّلطة السّياسيّة في إدارة شؤون الدّولة مركز، والثّروة الاقتصاديّة الّتي تبني الدّولة مركز، والجيش الّذي يحميها مركز، والعصبيّات القبليّة من مراكز القوى الاجتماعيّة كذلك، ومنها تشكّلت الطّبقات الاجتماعيّة، وإن تدافعت عصبة الموالي مع

عصب العرب قرونًا طويلة بسبب اتّكاء بناء دولة بني أميّة على عصبة الموالي؛ ممّا أهّلهم للوصول إلى الحكم بعد سقوط الخلافة الأمويّة (422هـ/ 1031م)، لكنّ عصبة العرب لم تنتهِ أو تَضعف كما يُظنّ، إنّما مرّت بمراحل كُمون حافظت خلالها على كلّ خصائصها، وكلّما أتيحت لها الفرصة استعادت حضورها القويّ كما كانت عليه الحال أوّل أمرها، وكلّ من هو خارج هذه الدّوائر المركزيّة إمّا أن يسعى إلى الانتماء إليها، أو يمتلك من الإمكانات ما تؤهّله لخلق مركزيّة جديدة، أو يكتفي بالتموضع في الهامش الّذي حدّدته له المؤسّسات السّلطويّة المختلفة.

إنّ هذه (الثيمات) المركزيّة في الأندلس هي الّتي حدّدت أنّ ابن عمّار ينتمي إلى الهامش، فهو فقير معدم، وليس له نسب رفيع يتباهى به، ولم يكن في عائلته من يشار إليه بالبنان في شؤون العلم أو السّياسة أو الجند يمهّد له الطّريق. لم يكن معه سوى حلمه وطموحه وشعره لاقتحام المركز، لكنّه مرّ بتحوّلات كثيرة تسعى هذه الدّراسة إلى رصد آثارها في شعره من خلال منهج النّقد الثّقافيّ.

الدّراسات السّابقة

نال شعر ابن عمّار اهتمام عدد من الدّارسين، إلاّ أنّ أيًّا من الدّراسات- الّتي اطّلعت عليها الباحثة- لم تدرس شعره على ضوء النّقد الثّقافيّ .

ومن أوائل الدّراسات الّتي أُفردت للشّاعر وشعره وأوفاها كتاب: (**محمّد بن عمّار الأندلسيّ- دراسة أدبيّة تاريخيّة**) لصلاح خالص[4]، وألحق دراسته تلك بديوان ابن عمّار ممّا توفّر له من مصادر في ذلك الوقت، وهي أبرز الدّراسات الّتي أفادت منها هذه الدّراسة على اختلاف المنهج النقديّ بينهما.

أمّا الأبحاث المنشورة في مجلّات علميّة محكّمة، فمنها دراسة بعنوان: (**الاغتراب الذّاتيّ في شعر ابن عمّار الأندلسيّ**) لطالب تركيّ[5]، و(**صورة للأوضاع الاجتماعيّة وبعض مظاهر العمارة الأندلسيّة من خلال أشعار ابن عمّار الشّلبيّ الأندلسيّ**) لرانيا إسماعيل[6]، و(**محنة الذّات وتجلّياتها في شعر المنفى والحبسيّات: ابن عمّار الأندلسيّ نموذجًا**) لسالم سليمان[7]، و(**الغزل في شعر محمّد بن عمّار الأندلسيّ**) لهشام شهاب[8]، فضلًا عن دراسات أخرى سيرد ذكرها في هذه الدّراسة.

وأمّا الرّسائل الجامعيّة فمنها رسالة دكتوراه بعنوان: (**شعر محمّد بن عمّار الأندلسيّ- دراسة تحليليّة أسلوبيّة**) لمحمّد بن عبد الله[9]، ورسالة ماجستير بعنوان: (**صورة المعتمد بن عبّاد في شعر ابن عمّار الأندلسيّ:- دراسة موضوعيّة وفنّيّة**)[10] لسميّة بوعكاز.

الهامش: المبتدى

في قرية شَنَّبوس في شِلْب[11]؛ تلك القرية الخاملة كما يصفها ابن سعيد في كتابه (المُغْرِب في حلى المغْرِب) [12]، ولد الشّاعر ابن عمّار (422هـ/ 1031م)، وهو ينحدر من عائلة خاملة البيت؛ إذ "ليس له ولا لأسلافه في الرّياسة في قديم الدّهر ولا حديثه حظّ، ولا ذُكر منهم بها أحد"[13]، ولا تكاد المصادر -الّتي ترجمت له- تذكر شيئًا عن نشأته وطفولته سوى ما ذكره عبد الواحد المراكشيّ في (المعجب في تلخيص أخبار المغرب)[14] من أنّه انتقل من شَنَّبوس إلى شِلْب وهو طفل، ونشأ بها، وتعلّم علم الأدب على جماعة؛ ذكر منهم الأعلم الشّنتمريّ[15]، أمّا عائلته فلا تكاد المصادر تذكر عنها شيئًا، لكن وردت إشارة -في معرض التّهاجي بينه وبين ابن اللبّانة بعد استقراره في بلاط بني عبّاد بإشبيليّة- إلا أنّ والده أو جدّه كان يعمل خنّاقًا؛ إذ قال ابن اللبّانة فيه[16]:

وَضِدّانِ نَحْـــــنُ فَلا شَيْءٌ يُؤَلِّفُنا أنـا ابـــنُ اللبّانـةِ وهْـوَ ابْـــنُ خَنَّـاقِ

وقد انفرد المقّريّ في (نفح الطّيب) بالإشارة إلى أنّ نسب ابن عمّار ينتهي إلى قبيلة مَهْرَة القضاعيّة[17]، وهو أمر مستبعد؛ إذ لم تُشِرْ أيّ من المصادر المتقدّمة إلى ذلك، ولو كان ذلك صحيحًا لما توانى ابن عمّار لحظة واحدة عن التّباهي بهذا الأصل، وما من إشارة في شعره إلى نسب عربيّ يعتزّ به سوى بيت واحد في قصيدته الّتي كتبها في سرقسطة، وأرسلها إلى المعتمد، وفيها يقول[18]:

وما حـالُ مـنْ ربّتْـهُ أرضُ أعاربٍ وألقـتْ بـه الأقـدارُ بيـن أعاجـمِ

إلاّ أنّ هذا البيت حمّال أوجه في التّفسير، والرّاجح أنّه يقصد بأرض الأعارب الأندلس العربيّة اللسان والثّقافة لا الأرض العربيّة المشرقيّة، وما كان لشاعر يتوق للانعتاق من حياة الهامش ألاّ يعزف على هذا الوتر المركزيّ -في تكوين المجتمع الأندلسيّ- في شعره.

وعلى غير عادة شعراء عصره لم تُشِرِ المصادر أنّ لابن عمّار حظًّا من علوم أخرى سوى

الشّعر، مع أنّ الفرصة كانت متاحة أمام أبناء الفقراء لتلقّي كلّ أصناف العلوم مجّانًا، كما أنّه رحل إلى قرطبة؛ مركز العلوم في الأندلس وتأدّب بها، وما كان له لو كان طالبًا للعلم أن يفوِّتَ على نفسه هذه الفرصة الثّمينة، فالعلم –آنذاك– كان نسب من لا نسب له، إلاّ أنّه آثر أن يتعلّم ما يعجّل بتغيير أحواله وانتشاله من هامش الحياة على ما يبدو، فمهر في صناعة الشّعر وحسب، ولم تكن له به من غاية –من وجهة نظر المرّاكشيّ– سوى التّكسّب[19]، وأحسب أنّه أصاب في رأيه هذا.

من هذا العالم الهامشيّ –بكلّ تفاصيله– بدأ ابن عمّار رحلته ولا زاد له في الحياة سوى شعره متكسّبًا به يهبه لكلّ من يلقاه، ويأمل عنده بأعطية؛ أميرًا كان أم فقيرًا، فقد عانى في طفولته ومقتبل شبابه صنوف البؤس والحرمان وشظف العيش، وكان لهذه الحياة القاسية أثرها في إقباله بشعره على من يقدّره ولا يقدّره، وتقلّب في بلاد الأندلس مستجديًا مستعطفًا بهيئة رثّه تشي بأصل نشأته ومنبته، ولعلّ هذا ممّا أثّر سلبًا على تقبّل بعض أمراء الطّوائف له، وممّا يروى في هذا السّياق أنّه قَدِم على ابن العزيز أيّام رياسته ببلنسية مكتسيًا فروة طويلة وغفارة ضئيلة، فلمّا دار الزّمان بالرّجلين وخَلَعه ابنُ عمّار عن بلنسية، أرسل إليه يخيّره في خلعة يلبسها، فاختار عبد العزيز الفروة والغفارة، وعلم ابن عمّار أنّه يعرّض به وبزيّه يوم قصده وأنشده.[20]

ومع أنّ المصادر ذكرت أنّ الشّاعر قد قضى شطرًا من شبابه متجوّلًا بين مدن الأندلس، إلاّ أنّه لم يصل إلينا شيء من شعره في تلك المرحلة من حياته[21]، وكلّ ما نجده في المصادر الّتي ترجمت له عدا قدومه على صاحب بلنسية، قصّة أخرى ذكرها ابن بسّام في (الذّخيرة)[22] والمرّاكشيّ في (المعجب)[23] مفادها أنّه قدم في إحدى سفراته على شِلْب، ولا يملك إلاّ دابّة جائعة وشعره، فما كان منه إلاّ أن قصد رجلًا من وجوه السّوق مادحًا إيّاه، فقيّم ذاك الرّجل شعره بمخلاة شعير أخذها ابن عمّار وانصرف مضمرًا في صدره حقدًا دفينًا سيُظهره لاحقًا، ولولا أنّ القصّتين ذُكرتا استرجاعًا في زمن دالَ لابن عمّار ربّما ما كنّا لنجد لهما أثرًا في أيّ مصدر، فأين ذهب ذلك الشّعر، وقد أشارت بعض المصادر إلى وجود ديوان شعر له يدور بين أهل الأندلس؟

ذكر ابن الأبّار في (الحلّة السّيراء) أنّ ابن عمّار أتلف أشعاره الّتي قالها قبل اتّصاله ببني

عبّاد في إشبيلية ومحا آثارها، وأنّ ديوانه الّذي ألّفه أبو الطّاهر السّرقسطيّ[24]، واستفرغ جهده لجمعه وترتيبه على حروف المعجم لا يحتوى سوى على أمداحه في المعتضد، وما لا اعتبار له لنزوره[25]، فلماذا أقدم ابن عمّار على ذلك؟

ثمّة تفسيران لإقدامه على إتلاف شعره؛ أوّلهما أنّه ربّما وجد أنّ شعره قبل وصوله إلى بلاط المعتضد أقلّ جودة، فرغب في أن تحفظ ذاكرة التّاريخ أفضل ما جادت به قريحته. وثانيهما- وهو الأرجح- أنّه أراد إلغاء ماضيه بكلّ ما حملته سيرته من بؤس وفقر وحرمان وذلّ ومهانة على هامش حياة لم يخترها، إنّما كانت قدره المرير الّذي رغب في نسيانه، ولاسيّما إذا علمنا أنّ مدائحه في المعتضد نالت إعجاب معاصريه ولاحقيه، ولا يعقل أن يصبح شاعرًا بارعًا فجأة، ولعلّة ظنّ أنّ الحياة قد ابتسمت له أخيرًا، وأنّه قاب قوسين أو أدنى من تحقيق أحلامه وطموحاته، فعمد إلى التّفلّت من ماضيه بمحو شعر لو بقي لسار في الرّكبان، وكشف كلّ ما أراد قتله في ذلك الإنسان الّذي كانه، وما درى أنّ المعتضد- وهو صاحب فراسة لا تُبارى في الرّجال- لن يجعله ينعم بحلمه هذا طويلًا، وأنّ نهايته على يد المعتمد لن تكون أهون عليه ممّا لاقى في الماضي.

المركز: المسعى

شكّل التحاق ابن عمّار ببلاط المعتضد في إشبيلية علامة فارقة في حياته؛ إذ وجد في المعتضد الحاكمِ والشّاعرِ مبتغاه، وعلم بذكائه المشهود له أنّه سيجد عنده الفرصة للاقتراب من المركز، وتحقيق آماله وطموحاته.

وثمّة روايتان لكيفيّة التحاق ابن عمّار ببلاط المعتضد؛ إذ يروي ابن بسّام أنّه التقى المعتمد في شِلْب حين وجّهه أبوه لفتحها عام 455هـ، وبلغ من المنزلة منه أن حمله المعتمد معه إلى إشبيلية[26]، ووافقه ابن الأبّار في هذه الرّواية[27]، أمّا المراكشيّ فيذكر أنّ ابن عمّار ورد على المعتضد عندما كان يطوف ببلاد الأندلس مستجديًا مستعطفًا، ثمّ تعلّق بالمعتمد بعد ذلك[28]، وقد اتّفقت المصادر الّتي أشارت إلى التحاقه بالمعتضد- بصرف النّظر عن كيفيّة وصوله إلى بلاط إشبيلية- على أنّ أوّل شعره في المعتضد قصيدته الّتي مطلعها[29]:

أدرِ الزّجاجــةَ فالنّســيمُ قــدِ انْبَــرى والنّجــمُ قدْ صَــرَفَ العِنانَ عنِ السُّــرى

ومنها في مدح المعتضد[30]:

عَبّاد المُخْضَرُّ نائلُ كَفِّهِ وَالجَوُّ قَدْ لَبِسَ الرِّداءَ الأَغْبَرا
قَدّاحُ زَنْدِ المَجْدِ لا يَنْفَكُّ مِنْ نارِ الوَغى إلاّ إلى نارِ القِرى

وبلغت القصيدة من نفس المعتضد أن أجزل له العطاء من مال وثياب ومركب، كما أمر أن يُكتب في ديوان الشّعراء.[31]

وقد لاقت هذه القصيدة استحسان النّقّاد، وأشادوا بها، وعدّوها أفضل قصائده، بل إنّ ابن سعيد الأندلسيّ ذكر أنّه لم يجد "لأحد من شعراء الأندلس قصيدة أتت فرائدها نسقًا لا يكاد ينبو عن بيت منها" سوى قصيدته هذه، ثمّ أورد بعض أبياتها[32]، أمّا ابن دحية فقد روى القصيدة كاملة، ثمّ علّق عليها قائلًا: "وهذه القصيدة من غُرر القصائد، ودُرر القلائد، وكلّ بيت منها بيت قصيد، وواسطة سلك فريد".[33]

ومن الواضح أنّ ابن عمّار وضع أقصى طاقاته وإمكاناته الشّعريّة في هذه القصيدة؛ إذ جاء الأنموذج النّسقيّ للقصائد المدحيّة عامّة والإنشاديّة خاصّة-كما أقرّته المؤسّسة النّقديّة-[34] في أعلى تجلّياته فيها، وكانت اللغة طوع يديه يشكّلها كيف يشاء للإشادة ببطولة ممدوحه وكرمه وعراقة نسبه، وتفنّن في تشكيل المعاني والصّور، ومن الصّور المبتكرة الّتي جاء بها قوله[35]:

السّيفُ أَفصحُ من زيادٍ خطبةً في الحربِ إنْ كانتْ يَمينُكَ مِنبَرا

وقد أدرك ابن عمّار أنّه بقصيدته هذه أصبح قاب قوسين أو أدنى من تحقيق حلمه وغايته البعيدة بأن يكون في مركز الحياة لا على هامشها، ورِضَى المعتضد بابه إلى هذه الحياة الجديدة، والشّعر المنمّق وسيلته لتحقيق مسعاه، فجادت قريحته بالمزيد متحدّيًا مختالًا أن يأتي شاعر بما جاء به من نسيم الحمد والثّناء على مليكه، وطامحًا طامعًا في الوقت نفسه أن يلقى عند المعتضد ما يصبو إليه[36]:

وإليكَها كالرّوضِ زارَتْه الصَّبا وحَنَى عَليهِ الطَّلُّ حتّى نَوَّرا
نَمَّقْتُها وَشْيًا بِذِكْرِكَ مُذْهَبا وَفَتَقْتُها مِسْكًا بِحَمْدِكَ أَذْفَرا

مَــنْ ذا يُنافِــحُني وذِكْــرُكَ مَــنْدَلٌ أَوْرَدْتُــهُ مِــنْ نــارِ فِكْــــريَ مَجْــمَرا
لَئِــنْ وَجَــدْتَ نَسـيمَ حَمْـديَ عاطِـرا فَلَقَــدْ وَجَــدْتُ نَسـيمَ بِــرِّكَ أَعْــطَرا

وقد كانت هذه القصيدة أوّل الغيث بعد أن منحه المعتضد تأشيرة المرور إلى عالم الصّفوة، والاقتراب من المركز في إشبيليّة؛ حاضرة الأندلس الأهمّ في القرن الخامس الهجريّ، فبدأ يعدّ العدّة لترسيخ قدميه بإنشاد المزيد من المدائح في المعتضد من ناحية، والتّغلغل إلى نفس المعتمد بكلّ ما أوتي من مكر وسعة حيلة من ناحية أخرى.

ومن المرجّح أنّ رائيّة ابن عمّار هذه لم تكن ممّا يأتي عفو الخاطر والارتجال، ففيها أثر من إعمال الفكر والتّروي والتّصنيع حتّى تكتمل شعريتها مبنى ومعــنى، ويؤيد ذلك ما رواه ابن دحية من أنّ عبــد المــلك بن رَزين خاطب ابن عمّار- وكان ضيفًا عنده- بشعر قال فيه:

ضَمــانٌ علــى الأيّــامِ أنْ أَبْلُــغَ المُنــى إذا كنــتُ فــي وُدِّي مُسِــرًّا مُعْلِنــا

وذكر ابن دحية أنّ ابن عمار لم يجبه في يومه، "لأنّه كان يُعاني قوله ويُعلّله، ويُروّيه ولا يرتجله"، ثمّ أتاه في اليوم الثّاني بقصيدة مطلعها:

هَصَــرْتَ لــيَ الآمــالَ طَيِّبَــةَ الجَنــى وَسَــوَّغْتَ لــيَ الأحــوالَ مُقْبِلَــةَ الدُّنا[37]

وهذا ليس بمستغرب من رجل آتاه الله موهبة الشّعر ، فجعلها مطيّة توصله إلى مراميه البعيدة في زمن كان الشّعر فيه عمودًا من أعمدة الثّقافة الأندلسيّة، وبوّابة عبور إلى بلاط السّلطان، فأحسن رعايتها، وعبر بها إلى مبتغاه، ولو إلى حين.

التّحوّل الأصغر: شعاع الدّائرة

بعد أن نجح ابن عمّار في نيل رضى المعتضد بشعره، وطَّن نفسه على اقتناص الفرصة بأيّ ثمن، فلازم المعتمد ملازمة الظّلّ لصاحبه، وعاش بصحبته عيشة هانئة ناعمة ليّنة تليق بأبناء الملوك وصحبهم، وبدأ يخالط علية القوم من الوزراء والكتّاب والأثرياء، ويتقمّص شخصيّة التّرف النّاعم، وأصبحت علاقته بالسّلطة كعلاقة الشّعاع بمركز الدّائرة؛ يلتقي بالمركز لكنّه ليس سوى قطعة فحسب جاءت من أحد أطراف الدّائرة، لكنّها موصولة بالمركز على أيّ حال.

كانت العلاقة الوطيدة بين ابن عمّار والمعتمد هي السّبب المباشر لاقتحام الشّاعر هذا العالم الجديد بكلّ قوّة وثقة، وقد حفظت المصادر بعض المساجلات الشّعريّة بينهما[38]، ومن أشهرها -في قابل العهد بينهما- ما جاء في سياق خبر مفاده أنّ أحد فتيان المعتمد أدخل عليه باكورة نرجس، فكتب إلى ابن عمّار يستدعيه[39]:

قـدْ زارَنـا النّرْجِـسُ الذَّكِـيُّ وآنَ مِـنْ يَوْمِـنا العَشِـيُّ
ونَحْـنُ فـي مَجْلِـسٍ أنيـقٍ وقَـدْ ظَمِـئْنا، وثَـمَّ رِيُّ
وَلـي نَديـمٌ غَـدا سَـمِيِّي يـا لَيْتَـه ساعَـدَ السَّـمِيُّ

فأجابه ابن عمّار:

لبَّيْـكَ لَبَّيْـكَ مِـنْ مُـنادٍ لَـهُ النَّـدى الرَّحْـبُ والنَّـدِيُّ
هـا أَنـا فـي البـابِ عَبْـدُ قِـنٍّ قِبْلَتُـهُ وَجْـهُكَ السَّـنِيُّ
شَرَّفَـه والِـداهُ بِاسْـمٍ شَرَّفْتَـهُ أَنْـتَ والنَّبِـيُّ

ومع ما في ردّ ابن عمّار من خضوع ظاهريّ؛ إذ إنّه ليس أكثر من (قِنٍّ) لأميره، إلاّ أنّ البيت الثّالث يحمل دلالات تشي بما يخفيه الشّاعر من نظرته لنفسه في كونه ندًّا للمعتمد، ولو بالاسم، ولعلّه يُمنّي نفسه أن ينال بعض حظّه، لكنّه بالغ حين جمع اسميهما مع اسم النّبيّ عليه الصّلاة والسّلام، وهذه ليست واحدة شعره؛ إذ قال فيه -بعد فراره إلى سرقسطة- متجاوزًا حدّ النّفاق إلى الغلوّ[40]:

تَبَـوَّأَ مِـنْ لَخْـمٍ وناهيـكَ مَقْعَـدا مـكانَ رسـولِ اللـهِ مِـنْ آلِ هاشِـمِ

كما سبق لهذا المعنى عندما مدح المعتضد[41] بعد عودته منتصرًا من إحدى غزواته[42]:

إنْ كُنْـتَ مِـنْ لَخْـمٍ وَسُـدْتَهُمْ فَقَـدْ سـادَ النّبـيُّ محمّـدٌ عَـدْنانا

ولمّا ضمن ابن عمّار تمكّنه من نفس المعتمد، أخذ يوجّه شعره إلى أكابر رجال الدّولة والوزراء، ولاسيّما ابن زيدون الّذي طبّقت شهرته آفاق الأندلس قاطبة، فوضع

شعره في خدمة هدفه علّه يصيب بعض حظوظهم، وعلى ندرة ما وُجد في المصادر من شعر ابن عمّار في ابن زيدون على تطاول عهدهما في بلاط المعتمد، مع سابق عهد قصير بينهما في بلاط المعتضد، إلاّ أنّ ابن الأبّار أورد له قصيدة يُفهم من سياقها أنّه مدح ابن زيدون غير مرّة؛ إذ يقول[43]:

أَحيـنَ سَـقى صـوبُ اعتنائِكَ سـاحتي فَنَعَّمَهـا واهْـــتزَّ رَوْضِـي فـي تُرْبـي
ثَنَيْـتَ لِعَطْـفٍ قـدْ ثَنَيْـتُ مَـــدائحي عليـه، وسِـرْبٍ قـدْ بذَّلْـتَ بـهِ سِـرْبِي

ومع إدراك ابن عمّار أنّ مدائحه لم تقع في نفس ابن زيدون كما كان يأمل، إلاّ أنّه -على ما يبدو- استمرأ التّودّد له ومعاتبته عتابًا يفارق ما بين الإخوان والأنداد إلى ما يشبه التّذلّل الممجوج الّذي تأنفه النّفس الأبية، ومن ذلك قوله:

أَمـــا إنِّـه لـــولا عَـــوارفُكَ الّتـي جَـرَتْ فِـيَّ جَـرْيَ المـاءِ فـي الغُصُـنِ الرّطبِ
لَمـا ذُدْتُ طَيْـرَ الـوُدِّ عَـنْ شَـجَرِ القِلى ولا صُنْتُ وَجْـهَ الحَمْـدِ عَـنْ كَلَـفِ العَتْـبِ
ولكـنْ سَـأَكْني بالوفـاءِ عـنِ الجَفـا وأرضـى بِبُعْـدٍ بَعْـدَ مـا كان مِـنْ قُـرْبِ
وإنْ لَفَحَتْنـي مِـنْ سَـمائِكَ حَرْجَفٌ[44] سَأَهْتِفُ: يـا بَرْدَ النّسـيم عـلى قَـلْبي

أمّا ديوان ابن زيدون فلم يذكر فيه ابن عمّار إلاّ مرة واحدة، ولم يدوّن له سوى بيت واحد في سياق مطارحة بينهما ومعهما الشّاعر ابن وهبون[45]، ولو كان بينهما ما يحاول ابن عمّار الإيحاء به في الأبيات السّابقة، لظهر أثره في شعر ابن زيدون، ولا سيّما أنّ باب الإخوانيّات في ديوانه زاد على خمسين صفحة.

ولعلّ ابن زيدون —وقد عركته التّجارب- رأى في ابن عمّار رجلًا أفّاقًا انتهازيًا وضيع المنبت خامل الذّكر فصدّه وأهمله، ولا سيّما مع ما عُرف عن ابن زيدون من اعتداده بنسبه العربيّ المخزوميّ في قريش، فضلًا عن كونه أشهر أدباء عصره وأعلاهم شاعريّة بشهادة معاصريه ولاحقيه، ولم يضع أيّ ممّن ترجم لابن عمّار الشّاعرين في منزلة واحدة أو متقاربة سوى العماد الأصفهانيّ وابن دحية؛ إذ افتتح العماد ترجمة ابن عمّار بالقول: "هو وأبو الوليد بن زيدون في حسن الشّعر فرسا رهان، ورضيعا لبان، وقد ذكر أكثر الأدباء بالأندلس أنّهما أشعر أهل عصرهما"[46]، وقريب منه ما ذكره ابن دحية: "هو وابن زيدون فرسا رهان،

ورضيعا لبان، في التّصرّف في فنون البيان، وهما كانا شاعري ذلك الزّمان"[47]، لكنّ ما وصل إلينا من شعر ابن زيدون يتفوّق مبنى ومعنى على ما تبقّى من شعر ابن عمّار.

ومع انغماس ابن عمّار في ملذّات هذه الحياة الجديدة، إلاّ أنّها لم تشغله عن مدح المعتضد -في السّلم والحرب- بقصائد "مطرّزة العطفين بالشّكر والحمد"، و"أَلَذُّ منَ العذْبِ القَرَاحِ على الصّدى"، بل إنّها "أطيبُ منْ وَصْلِ الهَوى عَقِبَ الصَّدِّ".[48]

وأسوة بغيره من الشّعراء، كان الطّمع في عطاء المعتضد هو المحرّك الحقيقيّ للإفاضة في مدحه، وقد صرّح بذلك ولم يوارِ، كاشفًا عن نفس جشعة لا يملأ عينيها سوى التّراب، ومنبئًا عن أصل منبت وضيع بائس، وحظّ من الحياة يابس، ومن ذلك قوله[49]:

وما هذه الأشعارُ إلاّ مَجامِرٌ تَضَوّعَ فيها للنَّدى قِطَعُ النَّدِّ
وكُنْتَ نَثَرْتَ الفَضْلَ فيَّ وإنَّما نَثَرْتَ سَقيطَ الطَّلِّ في وَرَقِ الوَرْدِ
فَأُقْسِمُ لَوْ قَسَّمْتَ جودَكَ بَيْنَنا على قَدْرِ التّأميلِ فُزْتُ به وَحْدي

ولا يخفى على قارئ هذ الأبيات شدّة اعتداد ابن عمّار بشعره وتقديره لموهبته، مفارقًا الغرور إلى نزعة نرجسيّة واضحة؛ ينتزع من خلالها شرعيّة الاعتراف به وإن جاء من أقصى أطراف الهامش، ما دام يمتلك موهبة شعريّة يستحقّ معها أن يفوز بالتّقدير وحده، ولعلّها تعاظمت في نفسه لشدّة ما لاقى من الصّدّ وسوء التّقدير زمن تقلّبه بين ممالك الأندلس وأمرائها، قبل أن يسعفه جَدّه بالاستقرار في إشبيلية.

وما زال ابن عمّار يتفنّن في مدح المعتضد حتّى جاوز المبالغة إلى الغلوّ والشّطط في تقدير ذاته وتعظيم شعره، حتّى قال فيه، وقد استشعر صدوده[50]:

إنْ كُنْتُ مُعْتَقِدًا هَواكُمْ مِلَّةً فلقدْ تَلَوْتُ بِمَدْحِكُمْ قُرْآنَا

ومع ما أظهره الشّاعر في تلك المدائح من موهبة وذكاء وفطنة، إلاّ أنّ المعتضد لم ينزله المنزلة الّتي كان يعتقد أنّه يستحقّها، فأخذ يشكو ويرجو مدّعيًا الحبّ والولاء[51]:

ما لي يُعَطِّلُني زماني بَعْدَما حَلّيْتُ فيه بمَدْحِكَ الأَزْمانا

إنّــي تَجِـرْتُ وَرَأْسُ مالــي حُبُّكُــمُ   أَيَحِــلُّ لــي أَنْ أَشْــتكي خُسْــرانا
بَــدِّدْ دُجــى لَيْلــي بِأَقْمــارِ النَّــدى   لَقَــدْ بَقيــتُ بِلَيْلِهــا حَــيْرانا

ومن الواضح في هذه الأبيات أنّ ابن عمّار ظلّ على اعتداده وزهوه بموهبته الشّعريّة حتّى في شكواه، فالأزمنة قبل مدائحه كان عطلًا من الحليّ، فجاءت قصائده لتطّرزها وتجمّلها، ومع كلّ ما يظهره من تذلّل وخضوع إلاّ أنّه تذلّل كاذب وخضوع مصطنع؛ إذ لم يستطع إخفاء "أنا الشّاعر الفحل المتعالية"، وهي وظيفة نسقيّة مضمرة عند كلّ شاعر مدّاح، ولا يريد لهذه الوظيفة أن تتلاشى حتّى مع حاجته الشّديدة للقيام بدوره الّذي رسمته له كلّ من مؤسّسة السّلطة والمؤسّسة النّقديّة في اللعبة الجماليّة الأخطر والأكثر فاعليّة في تراثنا العربيّ الشّعريّ بطرفيها؛ الشّاعر الشّحاذ المنافق، والممدوح المصطفى المنزّه عن كلّ عيب ونقص.[52]

الإقصاء الأوّل عن المركز

ما كان للمعتضد -وهو الخبير بنفوس الرّجال- أن ينخدع بكلّ هذا النّفاق الشّعريّ الّذي حاول ابن عمّار أن يكسب به حظوته وعطاءه، ويتّقي غضبه وطغيانه في آن معًا، كما ساءه تعلّق ولده المعتمد به واصطحابه له في كلّ مجالس أنسه، وإيثاره له على خاصّة أهله، وانشغاله به عن ملازمة أبيه وهو ولي عهده، ويروي ابن بسّام في (الذّخيرة) أنّ ابن عمّار أوجس خيفة في نفسه من المعتضد، ففرّ إلى شرق الأندلس[53]، وذكر ابن سعيد في (المُغْرِب في حلى المغْرِب)أنّ فراره كان إلى سرقسطة[54]، أمّا المراكشيّ فقد ذكر أنّ المعتضد هو الّذي نفاه إلى سرقسطة بعد أن وَلِيَ المعتمد (شِلْب) من قبل أبيه؛ إذ استوزر المعتمد ابن عمّار في تلك الولاية، وسلّم إليه جميع أموره، فغلب عليه غلبة شديدة، وساءت السّمعة عنهما، فاقتضى نظر المعتضد التّفريق بينهما.[55]

وما كان لابن عمّار إلاّ أن يلجأ إلى الشّعر رسولًا بينه وبين صديقه المعتمد؛ يصف له بؤس حاله وضياع مآله بعد تفرّقهما وصفًا مبالغًا فيه؛ لعلّه يرقّ لحاله، فيتشفّع له عند أبيه، وممّا وصل إلينا من شعره قصيدته الّتي مطلعها[56]:

عَلَـيَّ وَإِلاّ مـا نِـياحُ الحَمائـمِ   وفــيّ وَإِلاّ مــا بُــكاءُ الغمائــمِ

وحشد الشّاعر في هذه القصيدة من الألفاظ والمعاني والصّور الشّعريّة ما ينبئ عن غضبه الشّديد ممّا آلت إليه حاله بعد انقطاع وصله بالمعتمد، وخروجه رغم أنفه من إشبيلية؛ دار النّعيم ومستقرّ الحلم، وهو يعلم وقع ذلك في نفس المعتمد المطبوع على الرّأفة ورقّة المشاعر، فما الرّعد إلاّ طالب لثأره، وما البرق إلاّ هزّة الصّارم للدّفاع عنه، والنّجوم لبست ثوب الحداد وأقامت المآتم، والرّياح الهوجاء شقّت جيوبها حزنًا على رحيله، والسّابحات العابسات الدّهم نَأَتْ به عن أرض المكارم والعلا، فما عاد له منها سوى زفرة نادم، ثمّ يستحضر الأيّام الخوالي بصحبة المعتمد، ويأسى عليها، ويصف مآله بين قوم "لم يهذّب طباعهم لقاء أديب أو نوادر عالم"، وما عاد له من ندامى سوى[57]:

صَعاليــك هَامــوا بالفَــلاةِ فَتَدَرَّعــوا جُلــودَ الأفاعــي تَحْــتَ بَيْــضِ النّعائــمِ

وهذا الحديث عن استبدال الأدنى بالّذي هو خير دليل على ذكاء ابن عمّار وفطنته، فلا شيء يمكن أن يثير حزن المعتمد وشفقته أكثر من أن ينتهي خليله وصاحبه إلى هذا المصير السّيّئ، ومتى حقّقت القصيدة مرادها في نفس المعتمد، فلا بدّ له من مراجعة أبيه طالبًا عفوه ورضاه، ليعود صديقه إلى مركز الدّائرة من جديد.

وقد بالغ ابن عمّار في مدح المعتضد في ستّة وثلاثين بيتًا من القصيدة، حتّى ليكاد يجمع كلّ صفات الممدوحين من شجاعة وعدل وكرم وعراقة نسب في شخصه، فهو: "الحاجب الأعلى الّذي تطول بيمناه قصار الصّوارم"، وهو : "صقيل رداء العرض"، وهو: "طاهر ماء الوجه"، و"له هزّة في الجود معتضديّة"، كما أنّه "مهيب التفات الطّرف سامٍ موقّر"، وما تقلّد إلاّ "حميلة سيف أو حمالة غارم"، كما أنّه وقومه "ليوث حروب أو بدورٌ مواسم"، وهيهات أن يدانيه أحد في صفاته وأخلاقه.[58]

أمّا المعتمد فهو: "أغرّ مكين في القلوب محبّب"، كما أنّه "رقيق حواشي الطّبع"، و "بارع حسن الخطّ"، وإذا اهتزّت أقلامه جاءت ببديع النّثر وحكيم النّظم، ثمّ يعتذر إليه عن تقصير قصائده في استقصاء محاسنه وفضائله الّتي تعجز كتب التّراجم عن استيفائها، إلاّ أنّه لم يبلغ في مدحه مثلما بلغ في المعتضد، وإنّما لجأ إلى الاستعطاف والتذّلل إليه، مؤكّدًا ثقته بحظه من المعتمد فلا يخشى نَبْوة، ومتمنّيًا عودة أيّام مضت "كأنّها إذا امتثلتها النّفس لذّة حالم"، وإن سبق الموت إليه فهو قدر ربّ العالمين.

وهذه المغايرة في استخدام استراتيجيّات الخطاب بين مدح الأب وابنه تكشف عن استيعاب الشّاعر الدّقيق للاختلاف بين مزاج الابن وأبيه، فخاطب كلّاً منهما بما يبلغ معه أطيب الأثر في نفسه، لكنّ المتلقّي يستشعر عنتًا وإرهاقًا ذهنيًّا في مديحه للمعتضد لا يلمسه في مديحه للمعتمد، ومردّ ذلك إلى أمرين؛ أوّلهما: استحضار ابن عمّار لشخصيّة المعتضد الطّاغية الّذي لن يتوانى يومًا عن البطش بخصم أغضبه، فليسعَ هو إلى استرضائه بأقصى ما يستطيع من تفنّن في شعره. وثانيهما: أنّ المعتمد ما هو إلاّ جسر في هذه القصيدة نحو أبيه صاحب السّلطان الّذي يثير الخوف والإعجاب، فمنه وعنده مربط الحلّ والعقد في شؤون السّياسة والحرب، وابن عمّار رجل طموح يرى أنّه يستحقّ أن يكون داخل هذه الدّائرة لا على هامشها، وما من سلاح له في هذه المرحلة سوى شعره، وما من معين له في غربته الإجباريّة سوى إطلاق العنان للمنافق الأفّاق المتملّق الكامن في داخله يهيم به في كلّ وادٍ ليوصله إلى مراده، مستعينًا بذلك بما سبق إليه الشّعراء من الأفكار والصّور والمعاني معيدًا صياغتها وفق أغراضه وأهدافه، وقد علّق ابن بسّام على صنيع ابن عمّار هذا في قصيدته بالقول: "أمّا معاني هذه القصيدة فمحجّة مسلوكة، ومُضغة مَلوكة، قد كثر تجاذب الشّعراء أهدابها، وقرعوا بابها، حتّى صارت كالجمل المذلّل، والمَهْيَع من السّبل".[59]

ولم ينسَ الشّاعر أن يعزف على أوتار حلمه وطموحه ببلوغ غاية المنى بالعودة إلى المركز مهما بذل من ثمن، وأعلن من خضوع، ومن ذلك قوله بعد الفراغ من مدح المعتمد[60]:

أنـا العَبْـدُ في ثـوبِ الخُضـوعِ لَـوْ أَنَّني ... رَى البَـدْرَ تـاجي والنُّجـومَ خَواتمـي
وَإِنّـي -إِذا أَنْصَفْـتَ- بَعْـدَكَ خـادِمٌ ... لِدَهْـري وَكانَ الدَّهْـرُ عِنْـدَكَ خادِمـي

كما كتب ابن عمّار قصيدة أخرى إلى ابن زيدون يستشفعه لدى المعتضد، ومطلعها[61]:

كَيْـفَ اعْتَـزَزْتَ عَلـى الدَّليـلِ ... وَقَطَعْـتَ أَسْـبابَ الوُصـولِ؟

لكنّه -في هذه القصيدة- لجأ إلى استراتيجيّة خطاب مختلفة عن تلك التّي ظهرت في ميميته للمعتمد؛ إذ عاتبه عتابًا لا يخلو من تذلّل لانقطاع أسباب الوصل بينهما،

مذكّرًا إيّاه بالأيّام الخوالي ومجالس الأنس واللهو، ثمّ بدأ يخلع عليه من الصّفات أنبلها وأحسنها، فهو: "قرارة الشّرف الأثيل"، و"اليقظ النّبيل"، و"غرّة الزّمن البهيم"، و"عزّة الأدب الذّليل"، و"محكم القلم القصير على شبا الرّمح الطّويل"، و"أُنْس بدر في الظّلام" و"بَرْد ظلّ في المقيل"، وكيف لا وابن زيدون شاعر فحل، بل إنّه أكثر فحولة من ابن عمّار، وأناه متضخّمة أكثر من صاحبه، لكن لا بأس هذه المرّة من إيصال ابن زيدون إلى ذروة الإحساس بالامتلاء من كلّ هذا المديح، ولا بأس من إظهار بعض التّذلل:

أَعَلِمْتَ أَنّي خادِمٌ ذِكْراكَ بالشُّكْرِ الجَزيلِ
لَمْ أَسْتَحِلْ عَمّا عَهِد تَ مَعَ الزّمانِ المُسْتَحيلِ

ما دامت غايته من كلّ ذلك:

اشْفَعْ عِنايَتَكَ الجَليـ لَةَ لي لَدى المَلِكِ الجَليلِ

ومع كلّ ما أراق من ماء وجهه متذلّلًا مستعطفًا إلاّ أنّه لم يعد إلى إشبيلية إلاّ بعد وفاة المعتضد (461هـ/ 1069م)، ولا يُعرف فيما إذا كان قد اتّصل ببعض أمراء الطّوائف خلال مدّة نفيه، أم بقي يمنّي النّفس بالعودة إلى إشبيلية كلّ ذلك الوقت، فضياع الكثير من شعره فوّت فرصه تتبّع أثر إقصائه الأوّل عن المركز أكثر من ذلك.

التّحوّل الأكبر: الزّاوية المركزيّة

ما إن خلف المعتمد أباه في حكم إشبيلية حتّى أرسل في طلب ابن عمّار ليكون إلى جواره؛ وزيرًا ورجل دولة وصديقًا أثيرًا، وما كان لذلك الرّجل الانتهازيّ أن يفلت هذه الفرصة من بين يديه؛ إذ أدرك يقينًا أنّه في أكبر تحوّل في حياته امتدادًا وأخطره عمقًا، فبادر من فوره إلى التّموضع في زاوية مركزيّة يقع رأسها على مركز دائرة السّلطة، وتحتلّ أكبر مساحة في زوايا الدّائرة كلّها، فسلك سلوك طبقة الأشراف في مجتمعه، وسعى بكلّ طاقاته وإمكاناته إلى تأصيل نفوذه، وتشديد قبضته على مفاصل الحكم، وتوسيع أملاكه، وإنماء ثروته على حساب الحاكم الرّسميّ لإشبيلية، فصال وجال في الشّؤون الدّاخليّة والخارجيّة للدّولة، وعقد الصّفقات مع العدوّ على حساب خزانة الدّولة، وقد تسبّبت

مغامراته غير المحسوبة -ولا سيّما معاهداته المذلّة مع (الأذفونش)- في إضعاف ملك بني عبّاد، والتّعجيل في سقوط دولتهم.

وتُظهر سيرة ابن عمّار- الوزير ورجل الدّولة- في المصادر أنّه لم ينفع أحدًا سوى نفسه؛ إذ سعى إلى التّخلّص من منافسيه في بلاط المعتمد تدريجيًّا، وفي مقدّمتهم ابن زيدون الّذي أزرى به أيّام المعتضد، وفاقه مكانة اجتماعيّة وسياسيّة وأدبيّة؛ بنسبه العربيّ العريق، وثراء أسرته، وطول تمرّسه في الوزارة، وموهبته الشّعريّة الّتي نالت إعجاب السّاسة والنّقّاد في عصره، فتضافرت عوامل كثيرة في نفس ابن عمّار جعلته يحقد على كلّ ما يمثله ابن زيدون من مزايا يفتقر إليها افتقارًا شديدًا، وأشار على المعتمد أن يرسل ابن زيدون إلى إشبيلية لإخماد ثورة هناك، وقد كانوا وصلوا للتّوّ إلى قرطبة، فما احتمل ابن زيدون مشاق السّفر وقد طعن في السّنّ، وتوفّي بُعيد وصوله إلى إشبيلية بقليل، وخلت السّاحة لابن عمّار حتّى غدا صاحب النّفوذ الأوحد في بلاط المعتمد، ولم تستطع اعتماد الرّميكيّة الّتي استشعرت خطر هذا الرّجل على زوجها والأندلس - من تحجيم دوره في إدارة شؤون الدّولة، على عظيم مكانتها في نفس المعتمد.

وتصدّى ابن عمّار لمواجهة الخطر الخارجيّ على إشبيلية بمكره وحيلته في التّعامل مع (الأذفونش)، حتّى وقع من نفسه موقعًا حسنًا، فأطلق عليه لقب (رجل الجزيرة)، وتعزّزت العلاقة بين الرّجلين حين استشعر ابن عمّار القوّة المتنامية للممالك الإسبانيّة، ووعى حقيقة ضعف الممالك الأندلسيّة، فراهن على أنّ (الأذفونش) سيكون حليفًا قويًّا له في تحقيق أطماعه القادمة بعد أن التقت مصالحهما، وأخذ ابن عمّار يتباهى بالصّداقة الوثيقة بينهما، وازداد إحساسه بتعاظم نفوذه حتّى على المعتمد نفسه، وبدأ يتّخذ قرارات مصيريّة دون الرّجوع إليه أو مشاورته، وحمّل خزانة الدّولة فوق طاقتها بالجزية الّتي تعهد بدفعها للأذفونش مقابل رجوعه عن دخول إشبيلية، ولم يكن في تدبير شؤون الدّولة أكثر من لاعب شطرنج نرجسيّ أحمق يظنّ في نفسه الحنكة السّياسيّة، بينما هو – في حقيقة الأمر- يذلّل السّبيل للأذفونش للاستيلاء على إشبيلية وسواها من مدن الأندلس، فكتب بذلك مصيره ومصير مليكه في آن معًا دون أن يدرك.

ومُتَتَبِّعُ شعر ابن عمّار في هذه المرحلة من حياته يلاحظ أنّه كان مسكونًا بإحساس

الانعتاق من شدائد الزّمن الماضي باطنًا، والانغماس في ملذّات الحاضر ظاهرًا، وبدا كما لو أنّه تقلّب في النّعيم منذ أبصرت عيناه النّور، وسلك سلوك أبناء الطّبقة الغنيّة؛ فمن وصف مجالس أنس وسمر ولهو وخمر، وسجال شعريّ بينه وبين المعتمد سجال الأكفاء والأنداد، إلى قصائد يراود فيها علية القوم - في إشبيلية وسواها- عن صداقة ظاهرة ومصالح باطنة، وتغزّل بالقيان والغلمان، وغيرها من الموضوعات الشّعريّة الّتي لم يألفها الشّاعر في حياته السّابقة.

وقد وصل إلينا عدد من القصائد والمقطوعات الّتي تكشف عمّا طرأ على الشّاعر المهمّش وشعره الجديد من تحوّل في ظلال السّلطة المركزيّة في إشبيلية؛ إذ بدا الشّاعر راضيًا عمّا آلت إليه حاله بعد أن حدّثته نفسه أنّه خلع أخيرًا رداء البؤس، وتودّع من أيّام الفقر وذلّ السّؤال، لكنّ شعره سار في اتّجاه معاكس.

أمّا شعر المديح فقد تراجع كمًّا ونوعًا في هذه المرحلة في حياته؛ إذ لا يكاد شعره في المعتمد يبلغ شيئًا إذا قورن بشعره في مدح أبيه، وكلّ ما وصل إلينا من شعره في هذا السّياق قصيدة في ثلاثة عشر بيتًا، وأخرى في ثمانية أبيات، فضلًا عن بيتين أرفقهما مع هدية في يوم عيد، ومساجلتين بينهما، وقصيدة في استعطاف المعتمد عند أسر الرّشيد لدى ملك برشلونة بسبب سوء تقدير ابن عمّار واندفاعه، وهي في أحد عشر بيتًا، وبذلك فإنّ مجمل ما وصل إلينا ممّا قاله في مدح المعتمد -الّذي شرّع له أبواب السّلطة والجاه والمال- بلغ واحدًا وعشرين بيتًا فقط، وما حظّ من اتّصل بهم من ملوك الطّوائف في تلك المرحلة من حياته بأفضل من حظّ المعتمد من شعره.

وأمّا شعره في الإخوانيّات والغزل ووصف مجالس اللهو والخمر فقد جاء في مقطوعات قصيرة غلب عليها الجهد العقليّ والصّنعة والتّكلّف والتّلاعب اللفظيّ، ولم تحظَ بإعجاب عدد من النّقّاد القدماء والمعاصرين.[62]

وعند الوقوف على قصيدتيه في مدح المعتمد يُلاحظ أنّ القصيدة الأولى كانت بمناسبة نزول المعتمد في بعض الحصون، ومطلعها[63]:

على اليُمْنِ والطّائِرِ السّانِحِ نَزَلْتَ وَغَيْرُكَ لِلْبارِحِ

وغلب على هذه القصيدة الصّنعة والتّكلّف، وبهتت معاني المديح حتّى كأنّ صاحب هذه القصيدة شخص آخر غير ذاك الّذي نظم القصائد العصماء في مدح المعتضد، فاكتفى بمخاطبته بـ"ملك الملوك"، ووصفه بأنّه "صاحب حلم راجح" و"بأس هادم ناطح"، وشبّهه بـ"غرّة القمر اللائح"، وبدا كأنّه يجرّ الكلمات جرًّا لتكتمل له القافية، وحين آن أوان الحديث عن كرمه اكتفى بالقول:

ولا النَّهْـرُ لَـمْ يُثْنِنـي عـن وُرو دِ نَـدى بَحْـرِكَ الزّاخِـرِ الطّافِـحِ

أمّا القصيدة الثّانية فجاءت بعد صنيع قدّمه له المعتمد، ومطلعها[64]:

أَفـي كُلِّ يَـوْمٍ تُحْفَـةٌ وَتَفَقُّـدُ بِفَضْـلِ نَـوالٍ وَاهْتِبـالٍ يُؤَكّـدُ

اقتصر مديحه فيها على كرم المعتمد لا غير، فلا شجاعة ولا بطولة ولا عراقة نسب كما ينبغي في مدح الملوك، وبدا الشّاعر متمحورًا حول ذاته بصورة لافتة من خلال الإكثار من استخدام صيغة المتكلّم، فهو لا يمدح كرم مليكه بقدر ما يمدح نفسه وامتنانه وتقديره لهذا الكرم، وفي ذلك يقول:

لَقَـدْ هَـزَّ أَعْطـافَ القَوافـي وَهَزَّنـي إِلـى شُـكْرِ إِحْسـانٍ أَغيـبُ فَيَشْـهَدُ
فَـإِنْ أَنـا لَـمْ أَشْـكُرْكَ صـادِقَ نِيَّـةٍ تَقـومُ عَلَيْهـا آيَـةُ النُّصْـحِ تَعْضُـدُ
فَـلا صَـحَّ لـي ديـنٌ وَلا بَـرَّ مَذْهَـبٌ وَلا كَرُمَـتْ نَفـسٌ وَلا طـابَ مَوْلِـدُ

وعلى غير عادة الشّعراء في الوقوف بين أيدي الملوك في الأعياد لإنشاد الشّعر ونيل العطايا، تشير المصادر إلى أنّ ابن عمّار أهدى المعتمد ثوبًا من صوف بحريّ، مشفوعًا ببيتين من الشّعر، وردّ عليهما المعتمد في أربعة أبيات[65]، فهل هذا صنيع وزير تجاه مليكه؟ وهل هذا ما يستحقّه المعتمد بعد ما أنعم عليه من الجاه والمال؟

يرى ابن بسّام أنّ ابن عمّار قد غلب على المعتمد، وأساء إلى سيرته، وتسبّب في إضاعة الأمر وتعطيل الثّغر، ويستشهد بشعر أرسله المعتمد إلى بعض كرائمه- ولعلّها اعتماد- حين كان في قرطبة يدير بعض الأمور السّلطانيّة، ويعتذر عن اللحاق بها، وآخره "إن شاء ربيّ أو شاء ابن عمّار"، وكتب إلى ابن عمّار يستشيره، فأجابه بما يهتك ستر

الحرم، ولا يليق بخطاب وزير لمليكه، بأن يعود إلى إشبيلية، وأن يسعى "قبل خلع نجاد السّيف" إلى "ذات الوشاح"، وأن يأخذ "للحبّ بالثّار ضمًّا ولثمًا"[66]، ولا أخطر على ملك من رجل جاء من الهامش، ثمّ أخذته سطوة المستقوي، وظنّ نفسه ندًّا وكفُؤًا لمن رفع قدره وأعظم شأنه.

لكنّ ابن عمّار إذا زلّت قدمه في أمر كان حاضرًا بشعره للاعتذار من المعتمد واستعطافه بالعفو عنه، ومن ذلك قصيدته بعد تسبّبه بأسر ولده الأمير الرّشيد لدى ملك برشلونة، ولكنّه لم ينسَ أن يمزجها بتذكيره بجميل صنائعه في دولته، ويمنّ على المعتمد بفضله، وفيها يقول[67]:

وَأَعْلَمُ أَنَّ العَفْوَ مِنْكَ سَجِيَّةٌ فَلَمْ يَبْقَ إِلاّ أَنْ تُخَفِّفَ مِنْ عَتْبِ
فَلي حَسَناتٌ لَوْ أَمُتُّ بِبَعْضِها إِلى الدَّهْرِ لَمْ يَرْتَعْ لِنائِبَةٍ سِرْبي

وقد ذهب صلاح خالص إلى أنّ الحكم على "شعر ابن عمّار في هذه الفترة يعوزه كثير من الدّقة والإحكام، إذ لا شكّ أنّ ما لدينا من إنتاج الشّاعر لا يعدو أن يكون قليلًا من كثير اختفى"[68]، ورجّح أنّ اختيارات النّقّاد في ذلك العصر قد تكون فوّتت ما يعتدّ به من شعر ابن عمّار وغيره، لكنّه عاد ونظر إلى مجمل شعره في تلك المرحلة من حياته، وخلص إلى أن أسباب قلّة شعره وضعفه عائد إلى انشغاله بتدبير أمور الدّولة، وما عاد الشّعر يشكّل له سوى وسيلة للمتعة والتّسلية، فغلب موضوع الإخوانيّات والمساجلات على شعره، ورأى أنّ مديحه في المعتمد هو من باب مدح الوزير لمليكه أو الصّديق لصديقه، فهو شعر ولاء لا شعر استعطاف واستجداء[69]، ومع ذلك فلا يكاد النّاظر في تلك النّماذج يرى أثرًا لولاء ولا لصداقة.

ثمّ يورد الباحث سببًا آخر لضعف شعر ابن عمّار آنذاك؛ إذ إنّه مع تبدّل طبقته الاجتماعيّة وجد نفسه أمام موضوعات شعريّة جديدة، وليس من السّهولة أن ينظم في أغراض لم يألفها، بعد أن اعتاد شعر المديح وما يتّصل به من شكوى واستعطاف، وأنّ الدّوافع الّتي جعلته ينظم أجود الشّعر في الماضي قد اختفت بعد أن وصل إلى تحقيق أهدافه ومطامحه، والشّعر عنده وسيلة لا غاية، وقد انتفت الوسيلة ببلوغ الغاية.[70]

أصاب صلاح خالص في وصف شعر ابن عمّار بأنّه شعر تكسّب، لكنّ ضعف شعره في هذه المرحلة لم يكن بسبب انشغاله بشؤون الدّولة أو عدم ألفته للموضوعات الجديدة، بقدر ما كان مرآة عاكسة لتموضعه في الزّاوية المركزيّة للسّلطة بعد عقود من التّهميش، فنأى بنفسه عن المديح بعد أن أصبح رجل الدّولة الأهمّ في عصره، وفاضت يداه بالمال والعطايا، ولعلّه رأى أنّ منزلته تستحقّ أن يكون ممدوحًا لا مادحًا، كما أنّه رجل مطبوع على الغدر وقلّة الوفاء وسوء الأدب كما ستروي سيرته اللاحقة، وأغلب الظّنّ أنّه رأى أنّه استحقّ مكانته الجديدة بكدّه وتعبه ومواهبه الخلاّقة لا بصنيع المعتمد ومَنّه، وهو ما يؤكّد أصالة النّزعة النّرجسيّة في شخصيّته، كما أنّ المعتمد بما طبع عليه من لين الجانب ورقّة الحاشية قد أطمعه في تجاوزه والتّعالي عليه في الشّعر وعلى أرض الواقع؛ وذلك على النّقيض من المعتضد الطّاغية الّذي راوح في مديحه بين الرّغبة والرّهبة، لكن ستكشف له الأيّام أنّ العرب قد صدقت حين قالت: "الولد سرّ أبيه".

المركز الموازي

لم يكتفِ ابن عمّار بما وصل إليه من أحلامه وطموحاته في بلاط إشبيليّة، وتاقت نفسه لممارسة دور سلطويّ أكثر مركزيّة ونفوذًا، فوجد في مرسية بغيته؛ إذ أوفده المعتمد على رأس جيش لحيازتها وضمّها إلى إشبيلية، لكنّه آثر الاستحواذ عليها، وتدبير شؤونها تدبير الملوك ذوي الشّأن، ولعلّ هذا الموقف هو أكثر ما أوغر الصّدور عليه، سواء رجالات الأندلس المعاصرين له، أو المؤرّخين اللاحقين عليه؛ إذ وجدوا في نكثه لعهد المعتمد وخلع طاعته- بعد أن رفعه إلى المراتب السّامية- واستبداده بأمر مرسية قلّة وفاء وكفر نعمة وخداع ومكر.

ولمّا أرسل المعتمد بيتين مشهورين من الشّعر إلى ابن عمّار يعاتبه فيهما على نكث عهده، أجابه بقصيدة يؤكّد أن ما سمعه من خبر تمرّده في مرسية ما هو إلا وشاية حاقدين ونمّامين، وأكّد ولاءه للمعتمد، مذكّرًا إيّاه بما قدّمه من خدمات جليلة وتضحيات جسيمة، ورغم قوله إنّه عبد طاعة مليكه، إلاّ أنّه أخذ يخاطبه بلهجة تحذيريّة لا تليق بخطاب الملوك، ولا تشي بأنّه ما يزال يحفظ شيئًا من الودّ القديم بينهما[71]، وممّا قاله[72]:

أَعِــدْ نَظَـرًا لا تُوهِــنِ الـرَّأْيَ إِنَّـهُ قَديمًا نَبـا هـافٍ وَأَدْرَكَ رائِـثُ
سَـتَّذْكُرُني إِنْ بـانَ حَبْلـي وَأَصْبَحَـتْ تَئِـنُّ بِكَفَّيْـكَ الحِبـالُ الرَّثائِـثُ
وَتَطْلُبُني إِنْ غـابَ لِلْرَّأْيِ حـاضِرٌ وَقَـدْ غـابَ مِنّـي لِلْخَواطِـرِ باعِـثُ

وفي مرسية سعى ابن عمّار إلى ترسيخ صورته حاكمًا، فاتّخذ لنفسه بطانة من الوزراء والمساعدين، وفي مقدّمتهم ابن رشيق، وانصرف إلى اللهو والخمر والتّمتّع بملذّات الدّنيا تمتّع المرتوي بعد طول ظمأ، وعاد لنظم الشّعر من جديد، لكنّ ما وصل إلينا من شعره يظهر أنّه اتّخذه سلاحًا لمهاجاة أمراء الطّوائف الّذين أظهروا له العداء السّافر، ولعلّه استقوى على جلب عدائهم بعلاقته المريبة بالأذفونش، وظنّ فيه حليفًا قويًّا ونصيرًا إن لزم الأمر، كما حفظت المصادر بعض شعره في وصف مجالس أنسه وسمره، لكنّه لم يضف إلى قيمته الشّعريّة شيئًا يذكر.

ولكي تكتمل تفاصيل هذه الحياة الرّغدة المنعّمة، كان لا بدّ له من استقطاب الشّعراء لمدحه وتخليد ذكره، وممّن كتب إليه أبو عيسى بن لُبون الّذي خاطبه خطاب الملوك؛ طالبًا رفده ومستجديًا عطاءه بقصيدة مطلعها[73]:

خُتِمـتْ بِعصْـرِكَ أَعْصُـرُ الأجـوادِ وَعَنَـت لِذِكْـرِكَ أَلْسُـنُ الـوُرّادِ

وقد لاقت هذه القصيدة استحسان ابن عمّار بعد أن دغدغت طموحه، فاستعاد قدراته الشّعريّة الّتي عطّلها أيّام وزارته للمعتمد، وأجابه "بهذه القصيدة الفريدة الّتي برز فيها، وأحسن ما شاء في ألفاظها ومعانيها، وأوّلها"[74]:

عَطَّلْـتُ مِـنْ حَلْـيِ السُّـروجِ جِيـادي وَسَـلَبْتُ أَعْنـاقَ الرِّجـالِ صعـادي
وَثَنَيْـتُ عَزْمـي عَـنْ مَسيرٍ هَـزَّني سَعـدي إِلَيْـهِ وَحَثَّنـي إِسْـعادي
وَسَـلَلْتُ مِـنْ ثَـوْبِ المُـروءةِ وَالوَفـا ثَوْبـي وَحُـلْتُ عَلـى بَنـي عَبّـادِ

والأبيات السّابقة تكشف تضخّم أنا الشّاعر بعد أن ظنّ نفسه قد أصبح مركزًا سلطويًّا يوازي مراكز أمراء الطّوائف بحظّه وجهده، ويعترف في الوقت نفسه بانعدام مروءته وقلّة وفائه للمعتمد، وهو من أسوأ ما يمكن أن يجتمع في شخص في آن معًا، إلاّ أنّ الشّاعر

أفاض في مديح ابن لُبون بما لم يمدح به المعتمد نفسه، بعد أن أرضى الأوّل غروره، وأسمعه ما يحبّه ويظنّ أنّه يستحقّه، وهذان الشّاعران تتلاقى سيرتاهما على نحو عجيب؛ إذ كان ابن لُبون من وزراء القادر في طليطلة، ثمّ حاز مربيطر في شمال بلنسية لنفسه، فأمّه الشّعراء، وقصده الكبراء، إلاّ أنّ ابن رَزين خدعه، وأخرجه منها، وله شعر نال استحسان نقّاد عصره. (75)

وفي هذه المرحلة من حياته بدأ موضوع جديد يظهر في شعره، وهو الفخر بالنّفس فخرًا يكشف عن أنّ هذا الرّجل ما فارقه الإحساس يومًا أنّه ينتمي إلى الهامش مهما طرأ على حياته من تحوّلات، ومهما أظهر من انتماء إلى مركز الحياة ومتنها، وماضيه ظلّ يطارده ولم ينعتق منه، وأكثر ما يُلمس هذا الشّعور في قوله(76):

أَنـا ابْـنُ عَمّـارٍ لا أَخْفـى عَلـى أَحَـدٍ إِلاَّ عَلـى جاهِـلٍ بِالشَّـمْسِ وَالقَمَـرِ
إِنْ كانَ أَخَّرَنـي دَهْـري فَـلا عَجَـبٌ فَوائِـدُ الكُتْـبِ قَـدْ يُلْحَقْـنَ بِالطُّـرَرِ

لكنّه في هذا المجتمع الطّبقيّ -المنشغل بالأنساب وأصل المنبت- ما كان يكفيه الانتساب إلى نفسه، وهو يعي هذا أكثر من غيره، فبدأ بنسج تاريخ وهميّ لعائلته في شعره، وذلك في قصيدته الّتي توعّد فيها أمير بلنسية لنقضه العهد بينهما، وانحيازه لابن طاهر بعد أن خلعه ابن عمّار عن مرسية، ومطلعها(77):

كَيْـفَ التَّخَلُّـصُ بِالخَديعَـةِ مِـنْ يَـدَيْ رَجُـلِ الحَقيقَـةِ مِـنْ بَنـي عَمّـارِ

وقد حشد فيها من صفات الفخر بنفسه ما ينسجم ونرجسيّته الطّاغية، فهو رجل مجرّب محنّك عركته التّجارب، و"سلس القياد"، و"فطن لأسرار المكايد"، و"كشّاف مظلمة وسائس أمّة ونفّاع أهل زمانه الضّرّار"، وغير ذلك من الصّفات النّبيلة الّتي لم يَحشد مثلها في قصيدة واحدة إلاّ للمعتضد، وعلى الأرجح أنّه كان شديد الإعجاب بشخصيّة المعتضد الحاكم الطّاغية المستبدّ، وأراد أن يكون صورة عنه.

وروت بعض المصادر(78) أنّ المعتمد لمّا وصل إليه خبر هذه القصيدة، نظم قصيدة بدأها ببيت ابن عمّار السّابق، ثمّ بدأ في الأبيات الّتي تليها -ساخرًا متندّرًا- بتعداد فضائل قومه وإنجازاتهم ، "الأكثرين مسوّدًا ومملّكًا ومتوّجًا"، و"المؤثرين على العيال بزادهم"،

و"النّاهضين من المهود إلى العلا"، و "الزُّهر الوجوه"، والّذين "إِنْ كُوثِروا كانوا الحَصى أَوْ فُوخِروا فَمِنَ الأَكاسِرِ مِنْ بَني الأَحْرارِ"، وختمها بقوله[79]:

لَمّــا نَماهُــمْ لِلْعُــلا عَمّارُهُــمْ تَرَكــوا العُــداةَ قَصيــرَةَ الأَعْمــارِ

وقد أوغرت هذه القصيدة صدر ابن عمّار على المعتمد، فقد واجهه بحقيقة نفسه، وأنّه رجل جاء من الهامش، وسيبقى أسير ذلك الهامش ولن ينعتق منه مهما فعل، وهي قصيدة تكشف في الوقت نفسه أنّ الفوارق بين ربيب المركز وربيب الهامش لا تذوب مهمّا تبدّل بهما الزّمان، والمعتمد نفسه عاش في القصر ومات في الأسر، وهو في نظر عينه وتقدير سواه ابن الملوك وسليل بني عبّاد من بني ماء السّماء ملوك لخم، وابن عمّار ابن شلب الخاملة الذّكر، وابن شمس الفقيرة المعدمة الّتي عرّض بها المعتمد في قصيدته، فثارت في نفس ابن عمّار غريزة الانتقام، وكتب قصيدة في هجاء زوج المعتمد اعتماد؛ مذكّرًا إيّاه أنّه وهذه الجارية الّتي اتّخذها زوجًا له ينتميان إلى أصل واحد، وهي قصيدة ترفّع أغلب المؤرّخين عن إيراد ما فيها من هجاء لزوج المعتمد وأبنائه لما فيها من فحش، فضلاً عن موقفهم السّلبيّ من ابن عمّار، واكتفى من أورد هذه القصّة بالإشارة إليها أو إيراد أبياتها الأولى، ومطلعها[80]:

أَلا حَــيِّ بِالغَــرْبِ حَيًّــا حَــلالا نَاخــوا جِمــالا وَحــازوا جَمــالا

وفيها يذكّر ابن عمّار المعتمد بأصل منبت زوجه، ويعرّض بنسب أبنائه، ويهجو المعتمد نفسه بأقذع الصّفات، ومنها قوله[81]:

تَخَيَّرَهــا مِــنْ بَنــاتِ الهِجــــا نِ رَمَيْكِيَّــةً مــا تُســاوي عِقــالا
فَجــاءَتْ بِــكُلِّ قَصيــرِ العِــذا رِ لَئيــمِ النُّجارَيْــنِ عَمًّــا وَخــالا

لكنّ ابن عمّار لم يعبّر عن حقده على زوج المعتمد بقدر تعبيره عن منظومة عصره، فاعتماد الّتي أعتقها المعتمد ثمّ تزوّجها، عاشت في حياتها وفي كتب المؤرّخين وماتت وهي جارية الرّميك بن الحجّاج، ولم يشفع لها أنّها أصبحت السّلطانة وأم أمراء بني عبّاد على الحقيقة، ولم تشفع لها حرّيتها الّتي وُهبتها في التّخلّص من تبعيّتها للرّميك، فقدر الإنسان آنذاك أن يعيش ويموت في دائرة أصل منبته، ومهما وضع الإسلام من تشريعات

تفاضل بين النّاس على أساس التّقوى، فيندر أن يلمس أثر ذلك على أرض الواقع، باستثناء الجيل الأوّل من صحابة رسول الله -ﷺ- في عموم سيرهم وتراجمهم، وما دام الإسلام لا يشكّل منظومة متكاملة لبناء الأفراد والمجتمعات المسلمة، ستبقى الأنساق الثّقافيّة الّتي تجذّرت عبر قرون طويلة في المجتمعات القبليّة تطغى على المشهد وتسوسه، وسيبقى المجتمع تراتبيًّا بين سيّد ومولى وعبد مهما تغيّر مظهره الخارجيّ.

الإقصاء الثّاني عن المركز

ذكر بعض المؤرّخين أنّ ابن عمّار كان حريصًا على ألاّ تخرج لاميّته الّتي هجا فيها المعتمد وأهله من دائرة المقرّبين إليه، فهو مع استقلاله بمرسية ما يزال يخشى غضبة المعتمد، لكنّها وصلت إلى ابن عبد العزيز، فبادر بإرسالها إلى المعتمد الّذي استشاط غاضبًا ومتوعّدًا ابن عمّار لسوء أدبه وفحش هجائه، متحيّنًا الفرصة للانتقام منه.

وكان أن توجّه ابن عمار إلى طليطلة لقيادة الانقلاب على ملكها القادر، وحيازة المدينة مدّعيًا أنّه رسول (الأذفونش) إليهم، لكنّه تصرّف كمن يريد أن يستولي على طليطلة كما استولى على مرسية من قبل، ويوسّع ملكه، ومن يدري فربّما كان هذا الرّجل قد حدّثته نفسه أن يستولي على ما يستطيع من مدن الأندلس ليؤسّس أكبر مملكة في عصره، ويكون هو الملك الأقوى بين ملوك الطّوائف، وهو ما ينسجم مع طبيعة تكوينه ونفسيّته، لكنّ محاولته باءت بالفشل بعد أن اكتشف القادر المؤامرة وأحبطها، فانقلب عنها إلى سرقسطة.[82]

وعند مغادرة ابن عمّار إلى طليطلة، انتهز ابن رشيق الفرصة -بعد أن نجح ابن عبد العزيز في استمالته إليه- للانتقام من ابن عمّار وخلعه عن مرسية ، فانقلب عليه واستولى على ثروته الطّائلة، وطرد أهله من المدينة، واسترضى (الأذفونش) وقدّم له الولاء والطّاعة، فأصبح ابن عمّار -كما وصفه صلاح خالص- "كالسّارق الّذي سُرق منه ما سَرقه"[83]، ولم يجد ملاذًا له سوى سرقسطه؛ منفاه الأوّل زمن المعتضد، فاستقرّ خادمًا عند ملكها المؤتمن الّذي قرّبه أملًا في أن يفيد منه كما أفاد منه المعتمد من قبل، ولم يكن لابن عمّار في بلاط ابن هود نشاط أدبيّ يذكر ؛ إذ ركّز جهوده في نشاطه السّياسيّ الماكر، مؤمّلاً أن تلاقي صنائعه عند المؤتمن ما لاقته عند المعتمد من قبل، فيستعيد بعض مكانته الّتي فقدها

بعد غدر ابن رشيق به، فنجح في إخضاع قلعة من قلاع سرقسطة المنيعة الّتي تمرّد قائدها على ابن هود، واحتال لدخولها وقتْل صاحبها غيلة في عدد محدود من الجند، ثمّ وجّهه المؤتمن لإخضاع بني سهيل في قلعة شَقورة بعد أن خلعوا طاعته، ولجأ ابن عمّار إلى الحيلة نفسها، لكنّ بني سهيل –الّذين لم ينجوا من هجائه حين كان حاكمًا لمرسية– سبقوا إلى اقتناصه هذه المرّة، ووضعوه في السّجن، وعرضوه للبيع لمن يشتريه بثمن أغلى.

وسار ابن عمّار في منفاه الثّاني سيرته في منفاه الأوّل، فأعمل طاقاته الشّعريّة المعطّلة من جديد، وأخذ يراسل بعض المقرّبين إليه بشعره لعلّ أحدهم يخلّصه من سجنه، ومنهم الفضل بن حسداي الّذي كتب إليه من سجنه بشقورة قصيدة ذات مستوى فنّيّ جيّد، ومطلعها[84]:

أدْرِكْ أَخـاكَ وَلَـوْ بِقافِيَـةٍ كَالطَّـلِّ يُوقِـظُ نائِـمَ الزَّهْـرِ

وأخذ يصف له سوء المآل، ويستذكر صحبتهما القديمة، كما وصف منعة الحصن الّذي سُجن فيه، لكنّه لم يلقَ منه جوابًا على ما يبدو؛ إذ لم تشر المصادر إلى ذلك، وهو أمر متوقّع، فقد استشعر النّاس أن (رجل الجزيرة) قد سقط أخيرًا، وما عاد في تقرّبهم منه أيّ مغنم.

وما فتئ ابن عمّار يستعمل سلاحه الشّعريّ في الذّود عن نفسه، ومقاومة مصيره البائس في السّجن، فأرسل قصيدة تلو أخرى لعلّها تلاقي نخوة أحد الأصدقاء أو النّدماء، لكن هيهات، فابن عمّار اليوم ليس هو ابن عمّار الأمس، وقد غارت النّفوس عليه بعد ما لاقوا من تكبّره وقلّة مروءته وغدره، وذاقوا الكثير من ويلات مؤامراته ودسائسه، وعرف أنّ بني عبد العزيز عرضوه للبيع، فكتب إلى صاحب ألمرية مستعطفًا[85]:

َصْبَحْـتُ فـي السّـوقِ يُنـادى عَلى رَأْسـي بِأَنْـواعِ مِـنَ المـــالِ
فَهَـــلْ فَتًـى يُباغِـــتُني ماجِـــدٌ أَخْـــدِمُهُ مُـــدَّةَ إِمْـــهالي

ولمّا لم تؤتِ محاولاته أكلها، عرف أنّه ما عاد له سوى صاحبه القديم، فكتب إليه أبياتًا يستعطفه فيها ويثير شفقته عليه، وأن يفتديه بالمال، ويتذلّل إليه، ويظهر له الخضوع والطّاعة، ومطلعها[86]:

نَفْـــسي تَحِـنُّ إِلـى فِـــداءٍ   تَفْديـــــكَ نَفْســي مِـنْ شِـراءِ

لكنّ المعتمد لم يكن ينتظر طلب ابن عمّار هذا؛ إذ أرسل ابنه الرّاضي لشرائه وشراء القلعة معه، وما إن علم ابن عمّار بقدومه حتّى نظم فيه قصيدة يعلن فرحه بقدومه، وتفاؤله بفكّ أسره، متذلّلاً كعادته عندما يدور الزّمان عليه، معلنًا وضع خدّه في الثّرى شكرًا للمعتمد وتيمّنًا ببنيه، لكنّ الرّاضي أعاده إلى إشبيلية مأسورًا مذلولاً، وأمر المعتمد بإيداعه في سجن القصر انتظارًا لملاقاة مصيره المحتوم.

الهامش: المنتهى

لعلّ ابن عمّار لم يعرف معنى الخوف والخطر في حياته مثلما عرفه في سجن إشبيلية، على بعد خطوات من صاحبه القديم الّذي كان يجيد التّلاعب بعواطفه ومشاعره في الماضي، فاستيقظت في نفسه أقصى طاقاته الشّعريّة الّتي لم يحظَ المعتمد سوى بالنّزر اليسير منها لأكثر من ربع قرن، لكنّ الرّهان اليوم ليس على منصب أو مكانة أو جاه، إنّما على رأسه، وعليه أن يحتال بشعره للنجاة من الموت هذه المرّة، فكانت قصائده في هذه المرحلة من أجود ما نظم من شعر بعد مدائحه في المعتضد، فكتب أوّلًا إلى أبناء المعتمد يستشفعهم عند أبيهم، كما كتب إلى ابن هود في سرقسطة وربّما غيره، لكنّ قصائده لم تجد صدى في نفوسهم بعد أن قطع ابن عمّار -بجشعه وغدره وقلّة مروءته ولسانه المقذع- كلّ أسباب الوصل مع أولياء نعمته، فلم يجد مفرًّا من الكتابة إلى المعتمد، ويقال إنّها آخر ما كتب في حياته، ومن المفارقة أن تكون هذه القصيدة أجمل ما كتب إليه من شعر، ومطلعها[87]:

سَـجاياكَ إِنْ عافَيْـتَ أَنْـدى وَأَسْـمَحُ   وَعُـذْرُكَ إِنْ عاقَبْـتَ أَجْلـى وَأَوْضَـحُ

ومع كلّ ما شرخه ابن عمّار في نفس المعتمد الّذي اصطفاه وأحبّه، إلاّ أنّه لم يغيّر في استراتيجيّة خطابه شيئًا في هذه القصيدة، فلجأ إلى التّذلل والاستعطاف والاعتراف بذنبه وإعلان ندمه على ما فات، وفي الوقت نفسه تنصّل من دوره في فصم عرى العلاقة بينهما، متّهمًا الوشاة والأعداء، وفي مقدّمتهم بنو عبد العزيز ، بالتّحريض عليه، واتّهامه عند المعتمد، ثمّ يعود -كما ألف دائمًا- إلى تذكير المعتمد بما أسلف من ودّ وخدمة "يكرّان في ليل الخطايا فيصبح"،

ويختم القصيدة بما يظنّ أنّه قد يلامس عطف المعتمد ورقّة طبعه، فيصفح عنه، ويخرجه من سجنه، ويقرّبه إليه في المركز من جديد، وإن أظهر -زيفًا وخداعًا- تقبّله لفكرة مواجهة الموت على يد صاحبه:

سَـلامٌ عَلَيْـهِ كَيْـفَ دارَ بِـهِ الهَـوى إِلَـيَّ فَيَدْنـو أَوْ عَـلَيَّ فَيَـنْزَحُ

وَيَهْنيـهِ إِنْ مُـتُّ السُّـلُوَّ فَإِنَّنـي أَمـوتُ وَلـي شَـوْقٌ إِلَيْـهِ مُبَـرَّحُ

لكنّ المعتضد هذه المرّة- لأوّل مرّة وآخرها- استيقظ في صدر المعتمد، فقتل صاحبه وصفيّه وخليله الأقرب بيده، وبالصّولجان الّذي أتى به ابن عمّار هدية للمعتمد من (الأذفونش)، وما درى يومها أنّه قد أحضر كفنه معه.

وضاعف قسوة مصير ابن عمّار أنّه لم يحظَ برثاء بعد مقتله سوى ببيت واحد جمع بين نقيضين؛ البكاء على قتله، ومديح قاتله، وهو بيت لابن عبدون يقول فيه[88]:

عَجَبًـا أَبْكيـهِ مِـلْءَ مَدامِعـي وَأَقـولُ لا شُـلَّتْ يَميـنُ القاتِـلِ

الخاتمة

خلصت هذه الدّراسة إلى أنّ ابن عمّار كان متكسبًا في شعره، واضعًا إيّاه في خدمة أهدافه ومراميه البعيدة؛ لذلك ظلّ شعره مرهونًا طوال حياته بموقعه من الهامش أو المركز، فكان أغزره وأجوده حين كان في الهامش لحاجته إلى انتشال نفسه من حياة فرضت عليه ولم يخترها، أو لإنقاذ نفسه من حماقة ارتكبها، وتراجع شعره كمًّا وجودة حين كان في المركز؛ إذ أغناه وضعه السّياسيّ والاجتماعيّ عن التّكسّب بشعره. وسكت في بعض مراحل حياته عن نظم الشّعر إلاّ للتّسلية، كما أشهره سلاحًا في وجوه أعدائه ومنافسيه، وما درى أنّه بذلك لم يترك له صاحبًا يلجأ إليه ليتشفّع له عند الحاجة، فطبعه الغادر وقلّة مروءته ولسانه المقذع وغروره وصلافته ونرجسيّته الواضحة في شعره- وقدره المحتوم قبل أيّ شيء- أوصله إلى هذه النّهاية المحزنة.

وعلى الرّغم من وجود ترجمة ابن عمّار في متون بعض المصادر التّاريخيّة، إلاّ أنّها كانت مرهونة- من مبتداها إلى منتهاها- بسيرة الملوك والأمراء الّذين أنقذوه وأغرقهم، وهي سيرة لم يتعاطف معها مؤرّخ أو ناقد، بل كانت أحكام بعضهم شديدة القسوة عليه،

وقد اختصر ابن الأبّار موقف النّقّاد من شعره بالقول إنّ: "مساوئ أفعاله ذهبت بمحاسن أقواله"[89]، وكان قدره أن يعيش هامشيًا ويموت هامشيًّا، وحتّى في مواقعه المركزيّة لم يغادر الهامش ولم يغادره الهامش لحظة؛ لا في حياته الواقعيّة، ولا في سيرته التّاريخيّة، ولا حتّى في شعره.

الهوامش والمراجع

(1) للمزيد: سلامة، زاهي وأبو العدوس، يوسف: "المركز والهامش في شعر الصّعاليك في العصر الجاهليّ في ضوء سيمياء الثّقافة"، **مجلّة اتّحاد الجامعات العربيّة للآداب**، الأردنّ: جامعة اليرموك، مجلد 16، العدد2، 2019، ص529–557.

(2) ابن منظور، أبو الفضل جمال الدّين بن مكرم (ت711هـ/ 1311م): **لسان العرب**، بيروت: دار صادر، مج6، ص 365.

(3) للمزيد: محمود، محمّد: **إشكاليّات الهامش وتجلّيات المتن**، القاهرة: الهيئة العامّة لقصور الثّقافة، 2017.

(4) خالص، صلاح: **محمّد بن عمّار الأندلسيّ: دراسة أدبيّة تاريخيّة**، بغداد: مطبعة الهدى، 1957.

(5) تركي، طالب: "الاغتراب الذّاتيّ في شعر ابن عمّار الأندلسيّ"، **مجلّة الجامعة العراقيّة**، الجامعة العراقيّة، بغداد: العدد 43، ج1، 2019، ص346–360.

(6) إسماعيل رانيا: "صورة للأوضاع الاجتماعيّة وبعض مظاهر العمارة الأندلسيّة من خلال أشعار ابن عمّار الشّلبيّ الأندلسيّ"، **مجلّة كليّة الآداب بقنا**، جامعة جنوب الوادي، مصر: العدد49، 2019، ص211 – 259.

(7) سليمان، سالم: "محنة الذّات وتجلّياتها في شعر المنفى والحبسيّات: ابن عمّار الأندلسيّ نموذجًا"، **مجلّة كليّة الآداب**، جامعة السّويس، السّويس: العدد 18، 2020، ص1 – 116.

(8) شهاب، هشام: "الغزل في شعر محمّد بن عمّار الأندلسيّ"، **مجلّة الجامعة العراقيّة**، الجامعة العراقيّة، بغداد: العدد52، ج1، 2021، ص199 – 213.

(9) ابن عبد الله، محمد: "شعر محمّد بن عمّار الأندلسيّ: دراسة تحليليّة أسلوبيّة"، رسالة دكتوراه، **جامعة أم درمان الإسلاميّة**، السّودان: 2012.

(10) وعكاز، سمية: "صورة المعتمد بن عبّاد في شعر ابن عمّار الأندلسيّ: دراسة موضوعيّة وفنّيّة"، رسالة ماجستير، **جامعة محمّد خيضر بسكرة**، الجزائر: 2012، ص203.

(11) تسمّى أيضًا (شنْتَبوس) و(شَنْبوس). للمزيد، ياقوت الحمويّ، شهاب الدّين أبو عبد الله ياقوت (ت626هـ/ 1229م): **معجم البلدان**، ج3، بيروت: دار صادر، د.ت، ص357، والبستانيّ، بطرس: **دائرة المعارف الإسلاميّة**، ج4، ط4، بيروت: 1976، ص443.

(12) ابن سعيد الأندلسيّ، أبو الحسن ونور الدين، علي بن موسى المغربيّ (685هـ/ 1286م): **المُغْرِب في حلى المغْرِب**، تحقيق: شوقي ضيف، ج1، ط2، القاهرة: دار المعارف، 1964، ص389.

(13) المراكشيّ، أبو محمّد عبد الواحد بن عليّ: **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، شرح: صلاح الدّين الهوّاريّ، ط1، صيدا– بيروت: المكتبة العصريّة، 1426هـ/ 2006م، ص88.

(14) المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص88.

(15) عالم باللغة والأدب والشّعر. انظر ترجمته في: ابن بشكوال، أبو القاسم خلف بن عبد الملك (ت578هـ/ 1183م): **الصّلة**، تحقيق: إبراهيم الأبياريّ، مج3، ط1، القاهرة– بيروت: دار الكتاب المصريّ– دار الكتاب اللبنانيّ، 1410هـ/ 1989م، ص976 – 977.

(16) لسان الدّين ابن الخطيب، أبو عبد الله محمّد بن عبد الله (ت 776هـ/ 1374م): **كتاب السّحر والشّعر**، تحقيق: ج.م. كونتنته فيرير، ط1، سوريا: بدايات للنّشر والتّوزيع، 2006، ص156 –157.

(17) المقّريّ، أبو العبّاس أحمد التّلمسانيّ (ت1041هـ/ 1632م): **نفح الطّيب من غصن الأندلس الرّطيب**، تحقيق: إحسان عبّاس، مج1، ط2، بيروت: دار صادر، 1997، ص297.

(18) ابن بسّام، أبو الحسن عليّ الشّنتريني (ت542هـ/ 1147م): **الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة**، تحقيق: إحسان عبّاس، مج1، بيروت: دار الثّقافة، 1417هـ/ 1997م، ص382، ابن عمّار، ص212

(19) المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص88.

(20) ابن الأبّار، أبو عبد الله محمّد القضاعيّ (ت658هـ/ 1260م): **كتاب الحلّة السّيراء**، تحقيق: حسين مؤنس، ج2، ط2، القاهرة: دار المعارف، 1985، ص119 – 120.

(21) ذكر خالص وقارة ولغديريّ أنّ أوّل من قام بتدوين بعض شعر ابن عمّار الأديب أبو القاسم الشّلبيّ أحد معاصريه وابن بلدته، في كتابه (أخبار المعتمد بن عبّاد)، لكنّه لم يصل إلينا، وإنّما وصلت نتف منه في مصادر أخرى. محمّد بن عمّار الأندلسيّ: دراسة أدبيّة تاريخيّة، ص175. وقارة، حياة: "نونيّة أبي بكر بن عمّار الأندلسيّ"، **مجلّة دراسات أندلسيّة**، تونس: النّاشر جمعة شيخة، العدد22، 1999، ص97. ولغديريّ، مصطفى: "شعر محمّد بن عمّار"، **مجلّة دراسات أندلسيّة**، العدد27، 2002، ص89.

(22) الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة، مج1، ص 369 – 371.

(23) المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، ص88.

(24) صاحب المقامات اللزوميّة، تصدّى لإقراء اللغة والأدب في قرطبة، وتوفّي فيها عام (638هـ). ترجمته في الصّلة، مج3، ص853.

(25) كتاب الحلّة السّيراء، ص133 – 134.

(26) الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة، مج1، ص371.

(27) كتاب الحلّة السّيراء، ص131

(28) المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص88

(29) الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة، مج1، ص382، المغرب في حلى المغرب، ج1، ص391، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص88، ابن دحية الكلبيّ، أبو الخطّاب عمر (ت633هـ/ 1235م): **المطرب من أشعار أهل المغرب**، تحقيق: إبراهيم الأبياريّ وآخرون، بيروت: دار العلم للجميع، د.ت، ص169، ابن سعيد الأندلسيّ، أبو الحسن عليّ (ت 685هـ/ 1286م): **رايات المبرّزين وغايات المميّزين**، تحقيق: محمّد رضوان الدّاية، ط1، دمشق: دار طلاس للدّراسات والنّشر والتّرجمة، 1987، ص87، محمّد بن عمّار الأندلسيّ: دراسة أدبيّة تاريخيّة، ص189.

(30) الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة، مج1، ص382، المغرب في حلى المغرب، ج1، ص391، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص89، المطرب من أشعار أهل المغرب، ص170، محمّد بن عمّار الأندلسيّ: دراسة أدبيّة تاريخيّة، ص191.

(31) المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص89

(32) رايات المبرّزين وغايات المميّزين، ص87.

(33) المطرب من أشعار أهل المغرب، ص172.

(34) للمزيد: العلي، فريال: "الأنساق الثّقافيّة في القصيدة الإنشاديّة الأندلسيّة/ عيديّات ابن فركون الغرناطيّ أنموذجًا"، **المجلّة العربيّة للعلوم الإنسانيّة**، جامعة الكويت: العدد 142، 2018، ص196 – 198.

(35) المطرب من أشعار أهل المغرب، ص171، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص89، ابن عمّر، ص192.

(36) الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة، مج1، ص383، المطرب من أشعار أهل المغرب، ص172 – 173، ابن خاقان، أبو نصر الإشبيليّ (ت529هـ/ 1134م): **قلائد العقيان ومحاسن الأعيان**، تحقيق: حسين خريوش، ط1، الزّرقاء: مكتبة المنار، 1409هـ/ 1989م، ص283 – 284، ابن عمّار، ص193 – 194.

(37) انظر القصّة في: المطرب من أشعار أهل المغرب ، ص39 – 40.

(38) للمزيد: شيخة، جمعة: "المساجلات الشّعريّة بالأندلس، مساجلات المعتمد وابن عمّار مصدرًا للتّاريخ"، **مجلّة دراسات أندلسيّة**، العدد 24، 2000، ص14 – 39.

(39) ورد الخبر في: الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، مج1، ص46 – 47، وكتاب الحلّة السّيراء، ص131 – 132، المطرب من أشعار أهل المغرب، ص16 – 17، والعماد الأصفهانيّ، أبو عبد الله محمّد (ت 597هـ/ 1201م): **خريدة القصر وجريدة العصر**، تحقيق: آذرتاش آذرنوش، ط1، تونس: الدّار التّونسيّة للنّشر، 1986، ج2، ص 28– 29، ومحمّد بن عمّار الأندلسيّ: دراسة أدبيّة تاريخيّة، ص234.

(40) الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، مج1، ص376، محمّد بن عمّار الأندلسيّ: دراسة أدبيّة تاريخيّة، ص217.

(41) يرى جمعة شيخة أنّ هذه القصيدة قيلت في المعتضد لا المعتمد كما ورد في كتاب "**كنز الكتّاب ومنتخب الآداب**" للبونسيّ، وتوافقه الباحثة في ذلك؛ إذ وردت عدّة أدلة على ذلك في أبيات القصيدة. انظر القصيدة كاملة في: البونسيّ، أبو إسحاق إبراهيم (ت 651هـ/ 1253م): **كنز الكتّاب ومنتخب الآداب**، تحقيق: حياة قارة، أبوظبي: المجمع الثّقافيّ، 2004، ج1، ص 374 – 377. وقد ورد رأي شيخة في"نونيّة أبي بكر"، ص100.

(42) كنز الكتّاب ومنتخب الآداب، ج1، ص376

(43) كتاب الحلّة السّيراء، ج2، ص139.

(44) الحرجف: الرّيح الباردة الشّديدة الهبوب. (لسان العرب)

(45) ابن زيدون، أحمد بن عبد الله (ت463هـ/ 1071م): **ديوان ابن زيدون ورسائله**، تحقيق: عليّ عبد العظيم، ط3، الكويت: مؤسّسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشّعريّ، 2004، ص280.

(46) خريدة القصر وجريدة العصر، ج2، ص71.

(47) المطرب من أشعار أهل المغرب، ص169.

(48) انظر قصيدته الدّاليّة في مدح المعتضد بعد انتصاره على باديس بن حبّوس في: القلائد، ص266.

(49) القلائد، ص266، ابن عمّار، ص199.

(50) كنز الكتّاب ومنتخب الآداب، ج1، ص377.

(51) كنز الكتّاب ومنتخب الآداب، ج1، ص377.

(52) للمزيد: الغذّاميّ، عبد الله: **النّقد الثّقافي (قراءة في الأنساق الثّقافيّة العربيّة)**، ط1، الدّار البيضاء- بيروت: المركز الثّقافيّ العربيّ، 2000، ص93 – 140.

(53) الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة، مج1، ص371.

(54) المغرب في حلى المغرب، ج1، ص389

(55) المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص86، 90.

(56) الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة، مج1، ص372، خريدة القصر وجريدة العصر، ج2، ص73 – 75، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص86 – 87، محمّد بن عمّار الأندلسيّ، ص 209 – 219.

(57) الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة، مج1، ص373، ابن عمّار، ص211

(58) المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص86.

(59) الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة، مج1، ص377.

(60) الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة، مج1، ص376، محمّد بن عمّار الأندلسيّ: دراسة أدبيّة تاريخيّة، ص 218.

(61) الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة، مج1، ص426، محمّد بن عمّار الأندلسيّ: دراسة أدبيّة تاريخيّة، ص223.
(62) محمّد بن عمّار الأندلسيّ: دراسة أدبيّة تاريخيّة، ص 104 – 105.
(63) الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة، مج1، ص376، محمّد بن عمّار الأندلسيّ: دراسة أدبيّة تاريخيّة، ص225.
(64) القلائد، ص 267–266، محمّد بن عمّار الأندلسيّ: دراسة أدبيّة تاريخيّة، ص227.
(65) ابن لُيُّون التّجيبيّ، أبو عثمان سعيد (ت 750هـ/ 1350م): **لمح السِّحْر من رُوح الشّعر ورَوْح الشِّحْر**، تحقيق: سعيد بن الأحرش، أبو ظبي: المجمع الثّقافيّ، 2005، ص284 – 285، لمح السِّحْر من رُوح الشّعر ورَوْح الشِّحْر، ص22، محمّد بن عمّار الأندلسيّ: دراسة أدبيّة تاريخيّة، ص230.
(66) الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة، مج1، ص 383 – 384.
(67) الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة، مج1، ص408، ابن عمّار، ص279 – 280.
(68) القلائد، ص257، ابن عمّار، ص105.
(69) محمّد بن عمّار الأندلسيّ: دراسة أدبيّة تاريخيّة، ص 105 – 106.
(70) محمّد بن عمّار الأندلسيّ: دراسة أدبيّة تاريخيّة، ص 106 – 107.
(71) الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة، مج1، ص405–406.
(72) الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة، مج1، ص206، كتاب الحلّة السّيراء، ص144، محمّد بن عمّار الأندلسيّ: دراسة أدبيّة تاريخيّة، ص285.
(73) الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة، مج1، ص394 – 395، القلائد، ص275.
(74) الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة، مج1، ص395 – 396، القلائد، ص278، محمّد بن عمّار الأندلسيّ: دراسة أدبيّة تاريخيّة، ص272.
(75) انظر ترجمته في: القلائد، ص 289 – 296، كتاب الحلّة السّيراء، ج3، ص167.
(76) رايات المبرّزين وغايات المميّزين، ص89، كتاب الحلّة السّيراء، ج2، ص164، محمّد بن عمّار الأندلسيّ: دراسة أدبيّة تاريخيّة، ص245.
(77) أبو العباس، أحمد بن عبد السلام الجراوي التادلي: **الحماسة المغربيّة مختصر كتاب صفوة الأدب ونخبة ديوان العرب**، ص771، محمّد بن عمّار الأندلسيّ: دراسة أدبيّة تاريخيّة، ص288.
(78) الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة، مج1، ص413، كتاب الحلّة السّيراء، ص156 – 157.
(79) الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة، مج1، ص413
(80) الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة، مج1، ص414، كتاب الحلّة السّيراء، ص157، المغرب في حلى المغرب، ج1، ص30، محمّد بن عمّار الأندلسيّ: دراسة أدبيّة تاريخيّة، ص291.
(81) محمّد بن عمّار الأندلسيّ: دراسة أدبيّة تاريخيّة، ص292، نقلًا عن مخطوط الأسكوريال، ص9.
(82) للمزيد عن تفاصيل مغامرة ابن عمّار في سرقسطة، انظر: ابن زيري، عبد الله بن بلقين (ت 487هـ/ 1090م): **مذكّرات الأمير عبد الله**، تحقيق: أ. ليفي بروفنسال، القاهرة: دار المعارف، 1955، ص80.
(83) محمّد بن عمّار الأندلسيّ: دراسة أدبيّة تاريخيّة، ص 144.
(84) القلائد، ص274، محمّد بن عمّار الأندلسيّ: دراسة أدبيّة تاريخيّة، ص302.
(85) الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة، مج1، ص419، القلائد، ص273، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص93، محمّد بن عمّار الأندلسيّ: دراسة أدبيّة تاريخيّة، ص305.
(86) الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة، مج1، ص420، محمّد بن عمّار الأندلسيّ: دراسة أدبيّة تاريخيّة، ص306.
(87) الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة، مج1، كتاب الحلّة السّيراء، ج2، ص153، القلائد، ص286، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص94–95، النّفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج5، ص182 ، محمّد بن عمّار

الأندلسيّ: دراسة أدبيّة تاريخيّة، ص306.

(88) الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، مج1، ص431، كتاب الحلّة السّيراء ، ص160، المغرب في حلى المغرب ، ج1، ص391.

(89) كتاب الحلّة السّيراء ، ص134.

المراجع بالحروف اللاتينية

References in Roman Script

(1) Slāmh, Zāhī, and Abū al-ʿDūs, Yūsf: " ālmrkz wa alhāmš fy šʿr al-ṣʿālīk fy ālʿṣr ālğāhly fy ḍwʾ sīmīāʾ al-ṭqāfh", Asaociation of Arab Universities Journal for Arts,Jordan: Yarmouk University, Vol. 16, No. 2, 2019, pp. 529-557.

(2) Ibn Mnẓūr, Abū al-Fḍl Ğmāl al-Dwīn ibn Mkram (Died: 711AH/ 1311): lsān ālʿarb Beirut: dār ṣādr, Vol. 6, p. 365.

(3) Maḥmūd, Muḥamad: iškālīāt al-hāmš wa ṭğlīāt al-mtn, Cairo: al-hīʾh al-ʿāmh lqṣūr al-ṭqāfh, 2017.

(4) Ḥālṣ, Ṣlāḥ: Muḥamad ibn ʿmār al-ʾandlsī, Baghdad: mṭbaʿt al-hudā, 1957.

(5) īāqūt al- Ḥmwy, Šhāb al-Dīn Abū ʿbd Al-lh īāqūt (Died: 626AH/ 1229): mʿğm ālbldān,Vol. 3, Beirut: dār ṣādr.

(6) Al-bstānī, Bṭrs: dāʾirat al-mʿārf al-islāmīh, Beirut: Vol. 4, 4th ed., 1976.

(7) Ibn Sʿīd al-ʾAndlsī, Abū al- Ḥasan and Nūr al-Dīn, ʿAlī ibn Mūsa al-Mġrbī (Died: 685 AH/ 1286): ālmġrb fy ḥla ālmġrb, Edited by: Šaūqī Ḍyf, 2nd ed., Cairo: dār ālmʿārf, 1964.

(8) Al-mrākšī, Abū Muḥamad ʿbd al-Wāḥd ibn ʿAlī: ālmʿğb fy tlḫyṣ aḫbār ālmġrb, Edited by: Ṣlāḥ al-Dīn al-Hwārī, 1st ed., Sidon, Beirut: ālmktbh ālʿṣryh, 1426AH/2006.

(9) Ibn bškwāl, Abū al-Qāsm ḫlf ibn ʿAbd al-Mlk (Died: 578 AH/ 1183): al-ṣlh, Edited by: Ibrāhīm al-Ibīārī, 1st ed., Cairo- Beirut: dār ālktāb ālmṣry- dār ālktāb āllbnāny, 1410AH/ 1989.

(10) Lsān al-Dīn ibn al- Ḫṭīb, Abū ʿAbd al-lah Muḥamad ibn ʿAbd al-lah (Died: 776 AH/ 1374): ktāb al-sḥr wa al-šʿr , Edited by: G. M. Kontnenta Ferrer, 1st ed., Syria: bdāīāt llnšr wa al-taūzīʿ, 2006.

(11) Al-mqrī, Abū al-ʿAbās Aḥmd al-Tlmsānī (Died: 1041 AH/ 1632): nfḥ al-ṭīb mn ġṣn al-ʾandls al-rṭīb , Edited by: Iḥsān ʿAbās , 2nd ed., Beirut: dār ṣādr , 1997p. 297.

(12) Ibn Bsām, Abū Al-ḥasan ʿAlī al- Šntrīnī (Died: 542 AH/ 1147): al-ḏḫīrh fī mḥāsn ahl al-ğzīrh, Edited by: Iḥsān ʿAbās, Beirut: dār al-ṭqāfh 1417AH/ 1997.

(13) Ibn al-ʾabār, abū ʿbd al-lh muḥamad al-qḍāʿī (Died: 658 AH/ 1260): ktāb al-ḥlh al-sīrāʾ, Edited by: ḥusaīn muʾns, 2nd ed., Cairo: dār ālmʿārf, 1985.

(14) Qārh, Ḥīāh: "nūnīat abī bkr ibn ʿamār al-ʾAndlsī: Journal of Andalusian Studies, No. 22, 1999, pp. 97-102.

(15) Lġdīrī, muṣṭfā: " šʿr Muḥamad ibn ʿAmār : Andalusian Studies Journal, No. 27,2002, pp. 85-93.

(16) Ibn Dẖīh al-Klbī, Abū al- Ḫṭāb ʿmr: (Died: 633 AH/ 1235): ālmṭrb mn ašʿār ʾhl ālmġrb, Edited by: ibrāhīm al-ʾabīārī and others, Beirut: dār ālʿlm llğmyʿ.

(17) Ibn Sʿīd al-ʾAndlsī, Abū al- Ḥsn ʿAlī (Died: 685 AH/ 1286): rāīāt al-mbrzīn wa ġāīāt al-mmīzīn, Edited by: Muḥamad Rḍwān al-Dāīh, 1st ed., Damascus: dār ṭlās lldrāsāt wa al-našr wa altrğmh, 1987.

(18) Al-ʿalī, Frīāl: "alʾansāq al-ṯqāfīh fī al-qṣīdh al-inšādīh al-ʾandlsīh/ ʿīdīāt ibn Frkūn al- Ġrnāṭī anmūḏğan, Arab Journal for the Humanities, Kuwait University: No. 142, 2018, pp. 195-226.

(19) Ibn Ḫāqān, abū Nṣr al-Išbīly (Died: 529 AH/ 1134): qlāʾid al-ʿqīān wa mḥāsn al-ʾaʿīān, Edited by: Ḥsīn Ḫrīūš, 1st ed., Zarqa: mktbat al-mnār, 1409 AH/1989.

(20) Šīẖh, Ğmʿh: "ālmsāğlāt al-šʿrīh bālʾandls, msāğlāt al-mʾtmd wa ibn ʿAmār mṣdran lltārīẖ, Journal of Andalusian Studies, No.24, 2000, pp. 14-39.

(21) al-būnsī, abū isḥāq ibrāhīm (Died: 651 AH/ 1253): knz al-ktāb wa mntẖb al-ʾādāb, Edited by: Ḥīāt Qārh, Abu Dhabi: al-mğmʿ al-ṯqāfī, 2004, pp. 374-377.

(22) Ibn Zaīdūn, Aḥmd ibn ʿAbd Al-lh (Died: 463 AH/ 1071): dīwān ibn zaīdūn wa rsāʾilh, Edited by: ʿAlī ʿAbd al-ʿAẓīm, 3rd ed., Kuwait: muʾsasat ğāʾizat ʿAbd al-ʿAzīz Sʿūd al-Bābṭīn llibdāʿ al-šʿrī.

(23) Al-ʿmād al-ʾAṣfhānī, Abū ʿAbd Al-lh Muḥamad (Died: 597 AH/ 1201): ẖrīdat al-qṣr wa ğrīdat al-ʿṣr, Edited by: Aḏrtāš Aḏrnūš, 1st ed., Tunisia: al-dār al-tūnsīh lilnašr, 1986.

(24) Al- Ġḏāmī, ʿAbd Al-lh: al-naqd al-ṯqāfī (qrāʾh fī al-ʾansāq al-ṯqāfīh al-ʿrabīh), 1st ed., Casblanca - Beirut: al-mrkaz al-ṯqāfī al-ʿrabī, 2000.

(25) Ibn Luīūn al-Tğībī, Abū ʿ Ţmān Sʿīd (Died: 750 AH/ 1350): lmḥ al-siḥr mn rūḥ al-šʿr wa raūḥ al-šiḥr , Edited by: Sʿīd ibn al-ʾAḥrš, Abu Dhabi: al-mğmʿ al-ṯqāfī.

(26) Ibn Zīrī, ʿAbd Al-lh ibn Blqīn (Died: 487 AH/ 1090): mḏkwrāt al-ʾamīr ʿbd al-lh, Edited by: É. Lévi-Provençal, Cairo: dār ālmʿārf, 1955.